

التفكير

عناصر الموضوع

٢٨٠	مفهوم التفكير
٢٨٢	التفكير في الاستعمال القرآني
٢٨٣	الألفاظ ذات الصلة
٢٨٧	الحث على التفكير
٣٠٢	مجالات التفكير
٣٢١	نتائج التفكير وثمراته

مفهوم التفكير

أولاً: المعنى اللغوي:

يحدد ابن فارس الجذر الثلاثي لمصطلح التفكير بقوله: «الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبراً»^(١).

أما عند ابن منظور: «الفكر والفكر: إعمال الخاطر في الشيء، قال سيبويه: ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر»^(٢).

ويذكر صاحب القاموس: «الفكر - بالكسر ويفتح - : إعمال النظر في الشيء»^(٣).

وفي المعجم الوسيط: «(فكر) في الأمر فكراً: أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم؛ ليصل به إلى مجهول... (التفكير): إعمال العقل في مشكلة؛ للتوصل إلى حلها... (الفكر): إعمال العقل في المعلوم؛ للوصول إلى معرفة مجهول»^(٤).

هذه خلاصة ما جادت به كتب اللغة في هذا المصطلح، ومن خلال التمعن في هذه التعريفات يلاحظ أنها تشترك في المعاني التالية وهي أن التفكير: يعتمد على إعمال القلب والعقل والنظر والباطن، ويكون بالتردد والتكرار، ويكون في المعلوم طلباً للمجهول.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

اعتماداً على ما جاء في التعريفات اللغوية اختلفت تعاريف المفسرين والعلماء لمصطلح التفكير على أن أغلبها لم تخرج عن إطار المعاني اللغوية، وفيما يأتي عرض لبعض التعريفات: يقول الراغب الأصفهاني: «الفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل؛ وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب...، ورجل فكير كثير الفكرة، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها»^(٥).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤ / ٤٤٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥ / ٤٣٥١.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٢ / ١١٥.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢ / ٦٩٨.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢ / ٢٠٢.

ويقول الجرجاني: «التفكر تصرف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب»^(١).
وخلاصة القول: أن هذه التعريفات اتفقت على ما يأتي:

✻ الفكر قوة أو ملكة، والتفكر أعمال لتلك الملكة، فليس كل من يملك تلك القوة هو متفكر، بل يمكنه ذلك بحسب إرادته.

✻ التفكر حالة خاصة بالإنسان دون الحيوان، كما أشار إلى ذلك الراغب.

✻ التفكر عملية يشترك فيها العقل مع القلب، فهي حالة ذهنية وجدانية.

✻ التفكر عملية هدفها استثمار المعارف للوصول إلى حقائق جديدة مطلوبة، ولا معنى للتفكر بدون تحقيق هذا الهدف.

ومن مجموع هذه التعاريف يمكن استخراج تعريف عام للتفكر بأنه:

عملية عقلية وجدانية، تعمل على استثمار المعارف والدلائل للتوصل إلى حقائق الأمور، بالنظر فيها، والاعتبار بنتائجها.

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٨٨.

التفكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فكر) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت (٨) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
[المدثر: ١٨]	١	الفعل الماضي
[المجاثية: ١٣]	١٧	الفعل المضارع

وجاء التفكير في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: إعمال الخاطر في الشيء^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبد الله جلغوم، ص ٨٨٣-٨٨٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥ / ٦٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العقل:

العقل لغةً:

جاء في لسان العرب: العقل: الحجر والنهى ضد الحمق، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، وسمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي: يحبسه^(١). إذا فمعنى العقل في اللغة يدور حول المنع والإمساك والإحكام، كما يستخدم أيضاً في الفهم.

العقل اصطلاحاً:

قيل: هو «القوة المتهيتة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة: عقل»^(٢).

وقيل: «العقل: العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها»^(٣). ويمكن تعريفه بأنه هو: الإدراك المانع من الخطأ لحقيقة الأشياء والعلم بصفاتها عن طريق استعمال الحواس. فأساسه الاعتماد على المعنى اللغوي الذي يعود إلى المنع والحبس للإدراك.

الصلة بين التفكير والتعقل:

يظهر الفرق بينهما من خلال أن التعقل هو ربط المعلومات الناتجة عن الإدراك الحسي لها في صورة منظمة، وأن التفكير هو تعميق الفكر في هذه الصورة، فالتعقل من المراحل الأساسية في عملية التفكير.

٢ التدبير:

التدبير لغةً:

«هو آخر الشيء... والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره؛ وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره، وهو دبره»^(٤). ويعرفه الفيومي بقوله: «دبرت الأمر تدبيراً فعلته عن فكر وروية»^(٥).

(١) انظر: المصدر السابق ٤ / ٣٠٦٤.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢ / ١١٠.

(٣) الكلبيات، الكفوي ص ٩٧٨.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢ / ٣٢٤.

(٥) المصباح المنير، الفيومي ١ / ١٨٩.

التدبر اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بقوله: «عبارة عن النظر في عواقب الأمور»^(١).

الصلة بين التفكير والتدبر:

يظهر الفرق بينهما في أن «التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتفكير تصرف

القلب بالنظر في الدلائل»^(٢).

٣ التذکر:

التذكر لغةً:

«ذكرت الشيء خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان»^(٣).

فالتذكر في اللغة يدور حول حفظ الشيء، والذي قد يكون بالقلب أو باللسان.

التذكر اصطلاحًا:

«وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، ثم الذكر وهو رجوع الصورة

المطلوبة إلى الذهن»^(٤)، فهو يجعل من التذكر عملية للقيام بالذكر.

الصلة بين التفكير والتذكر:

١. يجعل الإمام ابن عاشور الفرق بينهما دقيقاً فهو يجعل التذكر من العمليات العقلية التي

تستلزم وجود المعلومات المسبقة، حتى إذا أصاب العقل سهو، جاءت عملية التفكير؛

لتفتح لها الآفاق من جديد وتبقيها عاقلة في الذهن»^(٥).

٢. التذكر في القرآن ليس فيه إعمالٌ للعقل بالتحليل والتركيب والاستنتاج، لكنه عبارة عن

استحضار لما هو منسي، ومن ثم توظيفه لاستخراج الحكم والعبير أو طلب معاني أخرى

منه، لذلك فمعنى التذكر دائماً يرتبط بدلائل التوحيد والبراهين الواضحة من «الأشياء

المبثوثة في الكون والنفس الإنسانية والتاريخ الإنساني وآيات القرآن الكريم»^(٦).

(١) التعريفات ص ٥٤.

(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٧٥.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/٣٥٨ - ٣٥٩.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/٨١.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/٨٩.

(٦) العمليات العقلية في القرآن الكريم، عبدالرحمن صالح عبد الله، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم

التربوية والدراسات الإسلامية، السعودية ١٩٩٥ م، عدد ٧، ص ١١٦.

التفتقه لغةً:

أصل الفقه في اللغة: «العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين؛ لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم...، وفقه الشيء: علمه...، والفقه: الفطنة»^(١). فالفقه في اللغة هو الفهم والعلم بالشيء وحسن إدراكه.

التفتقه اصطلاحًا:

يأتي بمعنى: «التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم»^(٢). ويرى البقاعي أنه «العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بسرعة فطنة وجودة قريحة»^(٣). ويمكن تعريف الفقه بأنه: إعمال العقل للتوصل للمعاني الخفية، اعتمادًا على الفهم الدقيق للأمور والنظر في أعماق الأشياء.

الصلة بين التفكير والتفتقه:

«التفتقه هو خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، فالتفتقه هو الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعيًا لما يحيط به، وأعمق إدراكًا لأبعاد وجوده وعلاقته في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دومًا»^(٤). وهذا المعنى وارد إن كان المقصود به عملية التفكير التي تختلف في أصلها عن عملية التفكير التي قد تشير إلى مرحلة تعقل الأشياء فقط. بهذا يكون مصطلح الفقه يعبر عن مرحلة الفهم الدقيق والعميق لخفايا الأمور والمعاني.

٥ الاعتبار:

الاعتبار لغةً:

جاء عند ابن منظور «عبر الكتاب يعبره عبرًا: تدبره في نفسه...، العبر جمع عبرة، وهي كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر؛ ليستدل به على غيره»^(٥). فمعنى الاعتبار في اللغة هو النظر في الأمور المتساوية والانتقال فيها من حال إلى حال عن طريق الاستدلال على غيرها والاتعاظ بها.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤٥٠.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٢٠١.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٥٣١.

(٤) مدخل إلى موقف القرآن من العلم، عماد الدين خليل ص ٩٤.

(٥) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٨٣.

الاعتبار اصطلاحًا:

قال الرازي: «الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها»^(١). وجاء في التحرير والتنوير: «الاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها، وهو افتعال من العبرة، وهي الموعظة»^(٢). فالاعتبار اصطلاحًا يعني: النظر في حقائق الأشياء المعلومة ودلالاتها على أسبابها ونتائجها والاتعاظ بها.

الصلة بين التفكير والاعتبار:

إذا كان التفكير هو عملية عقلية وجدانية، تعمل على استثمار المعارف والدلائل؛ للتوصل إلى حقائق الأمور بالنظر فيها، فإن الاعتبار هو نتيجة هذه العملية العقلية، وما تم التوصل إليه من نتائج من خلال التفكير.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٠٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧٢/٢٨.

واستعمال أسلوب الإقناع العقلي من خلال الدعوة للتفكير فيها، وأخذ العبرة منها وتذكر الدروس الإيمانية والحياتية، ما يجعل قارئها لا يمل منها، ويستشف في كل مرة معنى جديدًا؛ لأجل هذا كانت القصة القرآنية مدعاة للتفكير فيها، فالاعتبار لا يكون إلا بعد النظر في الدلائل.

ويلخص سيد قطب هدف القصة بقوله: «يتمثل في إثارة الفكر البشري ودفعه للبحث عن الحق، وتقديم خلاصات للتجارب البشرية، والخروج بالعبور والعظات والسنن التي تحكم حركة الإنسان ومصيره، وإزاحة ستار النسيان عنه، وإمداده بطاقات تضيء له الطريق، وتساعد على مقاومة الإغراءات؛ تجنبًا للمصير السيئ، فتساعده على الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة»^(١).

ومن القصص التي وردت في موضوع التفكير قصة تابع الهوى الذي آناه الله الآيات، لكنه انزوى عنها، ورضي بسفاسف الأمور، وقد وردت قصته في سورة الأعراف، التي جاءت؛ لتبين أسباب الهداية والضلال، فوافق أن ترد فيها قصة المنسلخ من آيات الله.

قال تعالى: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص ١٢٥.

الحث على التفكير

تنوعت أساليب القرآن في الحث على التفكير، وسوف نتناول هذه الأساليب بالبيان فيما يأتي:

أولاً: سرد القصص والتعقيب عليها:

القصة هي أحد أساليب الهداية في القرآن الكريم؛ لما فيها من سحر يطغى على النفوس؛ ولأن الإنسان بطبعه مولع بتتبع الأخبار ومعرفة الأحوال، فهي تجعل الإنسان يعيش وقائعها وكأنه يحضرها، فيعيش بإحساسه وعقله الموقف القصصي، ما يرسخ نتائجه وعبره ويطبعها داخل النفس، فالاعتاظ والاعتبار هو الغرض الأساس الذي سبقت من أجله القصة في القرآن لا مجرد الاطلاع على قصص الأمم السابقة والشخصيات الماضية.

وتمتاز صياغة القصة في القرآن بإيصال المعنى في قالب سهل، يشد القارئ فيثير انتباهه ويرسخ المعنى في الذهن، كما تعمل على هز العقول ودغدغة المشاعر، وتغيير السلوك عن طريق تجديد الهمم، وزيادة خبرات الإنسان والانتفاع بخلاصة تجارب السابقين، فهي أسلوب رقيق دقيق يأخذ بالألباب يلخص المعنى في أسمى صورة وأبدع عبارة؛ لأنها تعتمد على أسلوب المشاركة الوجدانية للأحداث،

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ
بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ
يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿الأعراف: ١٧٥-١٧٦﴾.

جاء في التفاسير أن قصة هذا الرجل تخص عالماً من العلماء آتاه الله آياته، وقد اختلفوا على تسميته، فقد أورد الطبري^(١) عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما أنه بلعم بن باعوراء، وهو من بني إسرائيل، كما ذكر رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت^(٢).

وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره^(٣) رواية عن ابن عباس أنها في زوج البسوس، وهي من بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات مستجابات أذهبها على زوجته، وروايات أخرى ملئت بها كتب التفسير أغلبها من الإسرائيليات لا يمكن الاعتماد عليها؛ لعدم ثبات صحتها، والمختار أن هذه الآية عامة في كل من كانت هذه حاله وصفته، فالإيهام بصلة الموصول (الذي) يدل على أن لا حكمة في معرفة اسمه ونسبه، بل هي حال

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/٢٥٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٣/٢٥٥-٢٥٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم

عام لكل من يسلك دربه ويتبع هواه. بدأت القصة بالأمر الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ على قريش قصة ذلك العالم الذي آتاه الله تعالى العلم وحججه فأصبح عالماً ربانياً، وهذا من فضله تعالى وحسن توفيقه له، ولم يكن بتحصيله لها وجهه كما ظن، ما جعله يكفر بها وينبذها وراء ظهره، وقد شبه الله هذا الإعراض عن آياته بالانسلاخ كانسلاخ الجلد من الشاة، «وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه: انسلخ منه، وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة»^(٤).

وإسناد فعل السلخ للعالم ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

يدل على أنه كان باختيار منه، ما سهل وصول الشيطان له بعد أن كان محجوباً عنه ببركة آيات الله وعلمه، فأصبح من الغاوين، والغواية بمعنى الانهماك في الغي والضلال. ويذكر الله في الآية التي بعدها أنه لو كان في هذا العالم خير لرفعه الله بتلك الآيات إلى المقام الأعلى، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وأسند الرفعة له جل وعلا؛ لأنه هو الموفق لها والهادي إليها، قال تعالى:

(٤) روح المعاني، الألويسي ٩/١١١.

[١٧٦].

فمشركي مكة جاءهم نور الله، ودعاهم داعي الهدى، فأبوا واتبعوا أهواءهم، فكانوا بمنزلة الكلب، ويذكر أن حالة اللهاث طبيعية في الكلب؛ لضيق في مجاري تنفسه إلا أنها في المكذبين حالة مكتسبة تخالف ما فطروا عليه من العهد الذي واثقوا الله به، وفي فاصلة الآية «تذليل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكيرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة؛ لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكير مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»^(١).

ومن جميل القصص التي سردها القرآن على الناس والتي تستحثهم معانيها على التفكير في ملكوت الله قصة سيدنا إبراهيم مع عبدة الكواكب الواردة في سورة الأنعام، رغم أنه لم يرد فيها التفكير كمصطلح إلا أن معانيها تشير إليه وتبرز دوره في هداية البشر. يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ

﴿يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجٰلِسِ فَٱنفَسِحُوا۟ فَسَّحَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُرُوا۟ فَٱنشُرُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجٰتٍۭ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌۭ﴾ [المجادلة: ١١].

لكن لسبق علمه تعالى بأنه سيختار الخلود والميل والنزول إلى الأرض انحطاطًا وهوانًا، وقد رضي بالدنيا لما تزينت له وسار وفق هواه فيها، فاجتمع عليه الشيطان والهوى، فضاع في الدنيا، وأضاع الآخرة.

هذه هي القصة التي تتكرر في كل زمان ومكان، ومع كل عالم لم ينفعه علمه؛ إذ لم يقده إلى العمل؛ وليبين الله عظم الظلم الذي ارتكبه هذا العالم الجاهل في نفسه، ويوضح صورته ومكانته، مثل له بحيوان هو الأكثر خسة في مجموع الحيوانات، وهو الكلب ومن يقبل أن يشبه به، ثم بين محل التشابه بينهما ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ حَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهو حيوان دائم اللهاث في حال التعب أو الراحة، والعالم الجاهل دائم اللهفة على الدنيا والحرص على ما يطيب له هواه فتراه لا يشبع منها أبدًا، ثم ختم الآية بالتعميم وضربها مثلًا للمكذبين بآيات الله ﴿ذٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِآيٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٧٩.

كوكبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ لِمَ
يَهْدِينِي فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا
أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لِمَ يَهْدِينِي رَبِّي لَا أَكُونُ مِنَ الْقَوْمِ
الضَّالِّينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا
رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ
مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي
فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٧﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

وهذا المنهج الحكيم الذي سار عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام في نقض دعوى قومه؛ من أن الكواكب آلهة تعبد هو من فيض التفكير في ملكوت الله؛ ليجعلها سنة باقية في قومه ومن بعدهم، لمن أراد السير في طريق البحث الجاد الموصل إلى الحقيقة، فأراه الله سبيل التفكير في الكون؛ ليقوى إيمانه ويصل إلى «درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى، وهذا لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى»^(١).

والقصة تبدأ بانتظار إبراهيم الليل، ومسايرته لقومه في عبادة الكواكب، فلما تبدى له أحد الكواكب أظهر أمام قومه اعترافه له بالربوبية، لكن هذا الكوكب ما لبث أن اختفى، هنا سلك سيدنا إبراهيم طريق العقل؛ ليبين لقومه كيف يعقل أن يعبد إله يأفل ويختفي، وأين يذهب إذا أفل؟ ومن سيخلفه ويسير الكون في هذه الحال؟

ما يدل على ضعف هذا المعبود وعجزه، وهو ما أراد سيدنا إبراهيم أن يوصل قومه إليه بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ﴾ ثم عاد يبحث عن كوكب آخر يصلح؛ لأن يعبد، فرأى القمر وضياءً بنوره باهي الجمال، فأظهر لقومه استحقاقه للربوبية، لكن وجد أنه كسابقه يختفي، هنا كان على عقول البشر بمبادئها البسيطة أن تعي خطأ عقيدتها ومنهجها، وتنقض منهج العبادة، ما أقام عليهم الحجة بضلالهم.

نقل الألويسي عن ابن المنير أنه قال: «وإنما ترقى عليه السلام إلى ذلك؛ لأن الخصوم قد أقامت عليهم بالاستدلال الأول حجة، فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض لهم عليه السلام بأنهم على ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم له إلى آخره»^(٢).

ومجاراته لقومه، واستدراجاً لهم؛ ليكملوا بقية الاستدلال، وجه نظره إلى الشمس وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

فالنظر فيها يدل على أنها أكبر الكواكب وأعظمها نوراً، إذ هو الرب الذي يجب أن

(١) روح المعاني، الألويسي ٧/ ١٩٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٠٠.

ثانيًا: ضرب الأمثال والتعقيب عليها:

اعتمد القرآن أسلوب ضرب المثل كلون من ألوان الهداية الربانية، وأسلوب من أساليب البيان الإلهي، يعالج فيها قضايا التوحيد وأحكام الشريعة، وإقامة الحجة عليها، ويعرض الحقائق؛ ليقرّبها من الأفهام، ويوضح خفاياها، بما يحفل به من حكم ومواعظ مجمّلة ومختصرة ذات طابع عقلي وجداني؛ لأنه: «تمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسية وعكسه»^(٢).

وأورد صاحب البرهان أنه سمي مثلاً؛ «لأنه مائل بخاطر الإنسان أبداً، أي: شاخص، فيتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو»^(٣).

واهتم القرآن بهذا اللون البلاغي لما له من قوة على النفس البشرية تغطي على انفعالاتها، وتوجه فكرها وتحركه؛ ليستبين التشخيص الحسي للأمر المجرد عبر صور بيانية ذات طابع فني تحقق المقصود؛ من تصحيح للعقائد، وتهذيب للسلوك، واكتساب للأخلاق، والتزام بالنهج الصحيح، بأبلغ معنى، وأوجز عبارة، يتحرك خلالها الفكر لتجلية معانيها، قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(٢) المنار، محمدرشيد رضا ١/١٤٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/٤٨٧.

يعبد بلا شك، ومع أفولها ظهرت البراءة الثامة من عبادة هذه الكواكب، وتحقق إعلان الخضوع التام لخالق هذه الكواكب والسموات والأرض دون إشراك لأي شيء في فرض العبودية له.

بهذا التدرج وهذه المرونة وباستعمال طريق التفكير اهتدى إبراهيم عليه السلام إلى محاجة قومه وإبطال دعاويهم ومعتقداتهم، مشيراً أن الإله الأعظم يجب أن يتقبله العقل والحس معاً، وهذه الكواكب تخالف بديهيات العقل في تصور عظمة الإله، ولا تتوافق مع مقتضيات الإحساس بالربوبية، فكيف يليق بكم أن تعبدوه؛ لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)^(١).

إن التفكير في قصة المنسلخ من الآيات، وقصة إبراهيم عليه السلام، هما نموذجان من مجموع قصص القرآن، يوحى بهدف القرآن من الدعوة للتفكير في قصصه، واستخلاص العبر منه، كي يلامس الإيمان القلوب الضالة، ويزين اليقين القلوب المسترشدة، ولم يكن هدفها الثقيف فقط.

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿وَيَسِّفُ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ٤/١٤٧، رقم ٣٣٧٢.

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿ **أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعمم أو لا نعمم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله^(٤).

وقد بدأ هذا المثل باستفهام إنكاري في قوله: ﴿ **أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ** ﴾ والود هو محبة الشيء الكاملة مع تمنيه، وجاء بصيغة أحدكم؛ ليدل أن الخطاب فردي لكل إنسان؛ لأن الإنسان أناني بطبعه، ولا يوجد من لا يحب لنفسه أن يمتلك مثل هذه الجنة، والتي وصفها الله سبحانه وتعالى بأعظم صفات الجنان؛ فقد حوت أكرم الشجر من نخيل وأعناب وأكثرهما نفعاً، مياهها تجري أنهاراً، وفيها من كل صنوف الثمار؛ ليأتي بعدها على وصف حال صاحبها بأشد

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ **أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** ﴾، ٤/١٦٥٠، رقم ٤٢٦٤.

فكان واجباً على تالي كتاب الله أن يتمعن في أمثاله، ويفهمها، ويعرف المراد الله منها باستخراجه للحكم المقصودة منها، وارتبطت الأمثال بموضوع التفكير في خمس آيات كريمات؛ وذلك لدقة معانيها الخفية التي تتطب جهداً وتركيزاً؛ لاستيانتها. فالآية الأولى هي آية سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ **أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن مجموعة أمثال ساقها الله في موضوع الإنفاق في سبيله، واختلقت أقوال المفسرين في مضرب هذا المثل، فمنهم من يعد أن هذا المثل ضرب للمنفق المرائي^(١)، ومنهم من يقول: ضرب مثلاً للمرائي بأعماله^(٢)، ومن المفسرين من يعده ضرب للذي عمل بالطاعة في حياته ثم ختمها بعمل سيئ أذهب ما كان يعمل^(٣).

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢/٣٢٦.

وذكره الطبري عن السدي قال: هذا مثل آخر للمرائي، وهو المرجح عنده، وروى عن ابن زيد: هو مثل للمان في الصدقة، وقال مجاهد وقتادة والربيع: للمفرط في الطاعة.

(٢) الكشف، الزمخشري ١/٣٤١.

(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص ١٦٥.

وختم الله هذا المثل بالدعوة للتفكر فيما بينه الله من حكم وعبر فيه، ولكي يحسن الناس التفكير في عواقب الأعمال ونتائجها وأسبابها وغاياتها؛ ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة؛ ليشير انتباههم للتفكر فيه.

والمثل الثاني الذي يدعو الله فيه عباده للتفكر في معانيه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ بَيْنَ جَنَّتِهِ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وهو مثل خاص بموضوع النبوة، ورد في معرض الحديث عن الذين يكذبون بآيات الله المنزل على نبيه، فأمر الله الرسول أن يقول لهم أن ما يطلبونه منه ليس في مقدوره، «ولأن أمر الرسالة في خيالهم ينافي البشرية التي حقرها في أنفسهم جهلهم وسوء حالهم وفساد أعمالهم»^(٣). نفى عن نفسه قدرة التصرف في خزائن العطاء والإحاطة بالعلم الغيب، وما خفي من أمورهم في المستقبل مما هي من خصائص الإله، ثم نفى خصائص الملك وقدرته على الخوارق مما ليس في إمكان البشر؛ ليبين لهم أن حقيقة الرسالة تكمن في كونه بشراً أرسل إلى بشر؛ يعايش واقعهم، ويحس بهم، ويكون قدوة وأسوة لهم حتى يلتزموا ما جاءهم به، فهو رسول يتبع ما جاءه من

صفات الحاجة والحرص؛ فقد أصابه الكبر، وكان له عيال صغار لا يقدر على كسب قوتهم، وكانت هذه الجنة مورد رزقهم فعظم حرصه لجني ثمارها، فإذا هم كذلك حتى أصاب الجنة إعصار شديد، وفي جمع الإعصار مع النار معنى آخر: «فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافياً، ولكن لما علم الله سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك، كما يحصل إذا كان فيه نار، قال سبحانه: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ثم أخبرنا باحتراقها؛ لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم احراقها بإطفاء أنهارها، وتجفيف أوراقها وثمارها، فأخبر بإحراقها؛ احتراساً من ذلك؛ وهذا أحسن استقصاء وأتمه، بحيث لم يبق في المعنى موضع استدراك»^(١).

والتفكر في مورد المثل ومضربه يوحي لنا بالتشابه الكبير بين الحالتين من ناحية وجه الشبه، وهو حصول الخيبة في وقت انتظار الحصاد؛ ولهذا قال الحسن: «هذا مثل قل والله من يعقله من الناس شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»^(٢).

(١) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك حسن عبد الرزاق بنخش ص ١٤١، ١٤٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٣٧.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٥٢.

عند الإله العظيم، وإذا بدت هذه الحقيقة فمن أعرض عنها فهو مثل الأعمى، «وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتموا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبسون بها، والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها؛ ليعلموا أي الحالين أولى بالتخلق»^(١).

والمثل الثالث جاء في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَبَخَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِيدٌ رُجَّتْ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمْرًا يُتَلَا أَوْ نَارًا فَجْعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَان لَمْ تَكُنْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وهو مثل ساقه الله بعدما ذكر بغي الناس في الأرض وإفسادهم فيها، وهوان الآخرة في قلوبهم مقابل عظم الدنيا وزيتها عندهم، واستعمل المثل؛ لأنه أبلغ في الوصف وأقرب لإصابة المعنى، وأكثر تأثيراً في النفوس، فالحديث عن الدنيا والآخرة من الأمور المجردة التي لا يستطيع الإنسان استحضارها أو تصورهما، لذلك فالكلام عنها لا يقنع كما يقنع تصويرها بالأرض التي هي بين ناظريهم يومياً، وهي حقيقة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٤٣.

يدركها الكبير والصغير.

واستهل المثل بقصر دورة هذه الحياة الدنيا على دورة حياة النبات بكلمة (إنما) وهي «هنا لتشير إلى أن قصر الحياة الدنيا على هذا المثل المصور لبدايتها ونهايتها، أمر واضح معلوم لا يجوز لذي عقل أن ينكره، فما أشد جهل أولئك الغافلين عن هذه الحقيقة، المطمئنين لهذه الحياة الدنيا»^(٢).

وتم تشبيه الماء النازل من السماء بالخيرات والنعم النازلة من عند المولى، ووجه الشبه بين الصورتين أن الماء هو سبب حياة النبات، وكانت النعم التي أعطاه الله للناس من مال وجاه وعلم وصحة وشباب هي سبب افتتان الناس بالدنيا، قال ابن عاشور: «شبه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا؛ إذ ليس ثمة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه سبب ما يؤمل منه من زخرف الأرض ونضارتها»^(٣).

فاختلط هذا الأمل الناتج عن هذه النعم بحياة الناس، فازدهرت وطاب عيشهم بسرعة، وامتزجت هذه النعم بحياة الناس بحيث لم تعد منفصلة عن حقيقة الدنيا،

(٢) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك بخش ص ١٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٤٢.

صاحب الدنيا حيثُ ما ينفعه، وجملة: ﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ تشير إلى قصر مدة التمتع بها، ولو كانت في نظر الإنسان طويلة.

لمثل هذه الحكم والعبر ختم الله الآية بالدعوة للتفكير في هذا المثل بعد أن فصل الآيات؛ ببيان مراحل نمو النبات من بداية النشأة إلى عاقبته، ف قوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ يعني: نبين علامات غرور الدنيا وزوالها؛ لكيلا يغتروا، ونبين بقاء الآخرة؛ ليطلبوها، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بأمثال القرآن ويعتبرون بها^(٢).

والمثل الرابع الذي ورد بشأنه التفكير هو قوله تعالى: ﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَخَّرْنَا لَهُ كَمِثْلَ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ١٧٥-١٧٦].

وهي قصة العالم الذي لم ينفعه علمه وهو مثل «من آتاه الله آياته فكان عالمًا بها حافظًا لقواعدها وأحكامها، قادرًا على بيانها والجدل بها، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفًا لعلمه تمام

وبدت مظاهر زينة لها، كاختلاط الماء بالنبات بحيث لم يعد يظهر أمام نظارة النبات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهِمْ أَنهٗمْ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه وصف لنمو النبات ونضوجه وتكاثره وتنوعه «وذلك؛ لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء، فجعلت الأرض أخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون»^(١). وتزينت؛ لتحلو في عين زوجها، وعظم رجاء أصحاب الأرض فيها، وظنوا أن خيراتها لهم ولن يمنعهم منها أحد، وفي هذا إشارة إلى زخرف الدنيا وملذاتها وبهجتها وتزينها في عين طلابها حتى ظنوا أنه لا حائل بينهم وبين التمتع الدائم بها، ونسوا العمل للدار الآخرة، فلما جاء أمر الله بالهلاك أصبحت كالأرض المحصودة؛ حتى إذا رأيتها كأنها لم تكن ذات بهجة، ما أصاب صاحبها بالحسرة والندامة، ومثلها الدنيا إذا جاء أمر الله بإهلاكها، وقيام القيامة وتغيرت حالها، وتقلبت شئونها، ولم يجد

(٢) تفسير السمرقندي ٢/١١١.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/٢٣٨.

المخالفة فسلبها»^(١).

منه، ونظروا في الآيات وما فيها من البيئات بعين العقل والبصيرة، لا بعين الهوى والعداوة، ولا طريق لهدايتهم غير هذه»^(٥)؛ لأن هذا المثل هو أسوأ الأمثال المضروبة والتي لا يطبقها أي بشر.

أما المثل الخامس فجاء في قوله تعالى:
﴿لَوْ أَرْنَاكَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وهو مثل ضربه الله لإيقاظ القلوب الغافلة عن التدبر في معاني كتابه الجليل، يتمثل فيه عظم الجبل وصلابته مع قلة تأثيره بما ينزل عليه، يتشقق ويتصدع لما في هذا القرآن من المواعظ وعلو شأنه مقابل إهمال الإنسان له، والغرض منه «توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه وزواجره»^(٦).

فالجبل بشموخه وانتصابه يخشع لنزول القرآن عليه، فيذل ويستكين ويخشع، يقول ابن عاشور: «الخشوع: التطاطؤ والرکوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض»^(٧). كما فيه إشارة إلى أن الجبل لو تميز بمكرمة الإنسان في العقل، وأدرك ما في هذا القرآن لتصدع وانهار؛ لشدة عظمته، ما يوحى أن

وتشبيه هذا العالم بالكلب؛ لتشابههما في الحال، فالكلب دائم اللهاث في حال الإعياء أو الراحة عادة وطبيعة فيه، يقول الرازي: «وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، وكذلك من آتاه الله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقى نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة»^(٢).

واختيار الكلب للتشبيه؛ لأنه «من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدّها شرهاً وحرصاً، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه^(٣) في الأرض يتشمم»^(٤)، وبهذا يشبهه العالم الحريص على اتباع هواه واللاهف على الدنيا، وذيلت الآية بالدعوة للتفكر «رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم، وقبح مثلهم على التفكير والتأمل، فإذا هم تفكروا في ذلك تفكروا في المخرج

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٣٤٠/٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٤٠٦/١٥.

(٣) خطمه: أنفه.

انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٩٨/٢.

(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٥) المنار، محمد رشيد رضا ٣٤٢/٩.

(٦) الكشف، الزمخشري ٥٠٨/٤.

(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١٧/٢٨.

وجاء أسلوب الاستفهام في القضايا التي فيها آيات وبراهين ظاهرة للعيان وبإدابة للعقل، «فلكي يبلغ تأثيرها مبلغه من قلب المخاطب، ويشير عواطفه ورغبته في التفكير والتأمل، جاءت على شكل أسئلة تتحدى فكره وتثير انفعالاته، وتفتح بصيرته أو تعينه على الاستبصار والتعلم بجهده الذاتي...؛ لذلك تركت النصوص القرآنية الشريفة مجالاً للتأمل؛ ليجيب بنفسه عن أسئلة القرآن الكريم، ويكون جوابه مرة من المقدمات البرهانية...، وتارة يصل بجوابه إلى النتيجة المطلوبة في الاستدلال أو البرهان؛ ليجد لذة وقناعة»^(٣).

لذلك استعمل أسلوب الاستفهام الإنكاري عادة كتقريع لأفعال المشركين، وتوبيخاً لهم على أعمالهم، وعدم استخدام عقولهم وتفكيرهم في القضايا المطروحة بين أيديهم، وقد ورد مرتين بصيغة ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ في سورة الأعراف الآية (١٨٤)، وفي سورة الروم الآية (٨)، وورد بصيغة ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ مرة واحدة في سورة الأنعام الآية (٥٠)، وجاءت هذه الصيغة الاستفهامية موجهة للمشركين؛ للتفكير في أمور قد عاينوا حقيقتها بأنفسهم، وكانت مدركة لهم، وموصولة بحياتهم، وهي أمور

الذي لا يلين قلبه لهذا الذكر هو غير عاقل أبداً، ولا يختلف عن الأشياء التي لا تعقل، وقد استعمل الله تعالى ملمح الجبل؛ لتظل الصورة ثابتة في الأذهان على مر الزمن لجميع الأجيال، كونها صورة موجودة في كل عصر، وكون حقيقة الإعراض عما في القرآن موجودة في كل زمان.

ثالثاً: أسلوب الاستفهام:

الاستفهام في اللغة: «طلب الإفهام، والإفهام تحصيل الفهم... وقد يكون الاستفهام لفظاً وهو في المعنى توبيخ أو تقرير»^(١).

والاستفهام في القرآن «إنما يقع في خطاب الله تعالى على معنى أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات، أو النفي حاصل فيستفهم عنه، ونفسه تخبره به؛ إذ قد وضعه الله عندها...، فإن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم؛ ليقرهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن، وهو في كلام البشر مختلف»^(٢).

فكل استفهام في القرآن لا يقصد الله به انتظار الإجابة من الناس، بل هو تقرير لما قر في أنفسهم وعلموه.

(١) اللباب في علل البناء والإعراب، العكبري ١٢٩/٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣٢٧/٢.

(٣) من أساليب التربية بالقرآن التربية بالآيات، عبد الرحمن النحلاوي ص ٥٢.

الكافرين على اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون، قال الطبري: «أولم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جنة به ولا خبل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين»^(٢).

وورود الاستفهام؛ تعجباً للطريقة التي ينظرون بها إلى الأمور بها، فهذا الذي ولد منهم وعاش بينهم، وعرفوا حاله، وخبروا معدنه وصفاته ورزاقته، ثم يصفونه بالجنون كبراً وعناداً: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ

الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].
وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ

مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].
وهو الذي بعث؛ لينذرهم يوم الحساب، ويبين لهم العقاب والعذاب المقدر لكفرهم، «وفي هذا استغناء أو تسفيه لهم بأن حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البينة، وحال هذيان المجنون، فدعوى جنونه إما غباوة منهم بحيث التبت عليهم الحقائق المتميزة، وإما مكابرة وعناد وافتراء على الرسول»^(٣).

وفي آية الروم جاء الاستفهام بصيغة التعجب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي

عظيمة بالنسبة لعدم تفكيرهم فيها، فأيتا الأعراف والأنعام أثارنا استفهاماً حول قضية الوحي، وإنزاله على الرسول صلى الله عليه وسلم، واستنكرت معاداتهم له.

ففي آية الأنعام جاء الخطاب للرسول؛ لبيان لقومه ماهية رسالته وطبيعة بعثته، فأمره الله أن ينفي لهم ما طالبوه به من معجزات وخوارق، وقرنه بمثل ضربه لبعث الاستواء بين الأعمى والبصير؛ ليدل على الفرق الشاسع بين من يسمع الحجج فيخضع، وبين من تأخذ العزة بالإثم فيعمى عن رؤية الحق؛ لذا ختم الآية بسؤال على وجه التبكيت والتفريع لعدم تفكيرهم واستخدامهم عقولهم بالنظر في أمر النبوة، ولم يكن ينتظر منهم الجواب، فالجواب واضح وضوح الشمس لمن تأمل في صورة الاستواء بين الأعمى والبصير، «فإن قالوا: نعم، كابروا الحس، وإن قالوا: لا، قيل: فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير، ومن أعرض عنها فهو الأعمى، ومن سوى بين الخالق وبين شيء من خلقه فهو أعمى العمي؛ ثم أمره بعد الإنكار للتسوية بينهما بأن ينكر عليهم فساد نظرهم وعمى فكرهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. أي: فيردكم فكركم عن هذه الضلالات»^(١).

ومثلها آية الأعراف التي جاءت؛ لتوبيخ

(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/٢٨٩.

(٣) التحرير والتنوير ٩/١٩٥-١٩٦.

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢/٦٤١.

الحقيقة التي يسعى الناس لإنكارها؛ لظنهم الخلود في دار الدنيا؛ لذا قال الألويسي: ﴿أولم يفكروا﴾ إنكار واستقبح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة^(٢).

وبهذا يظهر هدف استخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري كمحرض على التفكير كونه شديداً على أنفس الكافرين، ويحمل في طياته الإنذار بالوعيد، وبهذا يمنحهم فرصة للتفكير العميق، ثم الإجابة السليمة عن هذه الأسئلة الموجهة إليهم بعدها الاستجابة التلقائية لنداء الفطرة وداعي الحق.

رابعاً: الثناء على المتفكرين:

«اعتمد القرآن أسلوب المدح في إثارة عملية التفكير؛ لأنه أسلوب محبب للنفوس، فالإنسان بطبيعته يحب المدح والثناء والظهور في مظهر حسن خلقاً وخلقاً؛ ليشير إعجاب من حوله، كما أن الإنسان لا يميل إلى الأسلوب المباشر في النصيح والإرشاد؛ لأنه يحب دائماً أن يشعر أنه عندما يأتي فعلاً طيباً، فإنما يفعل ذلك بدافع داخلي لا بناء على أوامر ونواهي»^(٣). والله تعالى يخاطب

(٢) روح المعاني، الألويسي ٢١/٢٢.

(٣) منهج القرآن الكريم في تربية الإنسان، مصطفى حوامدة، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، أكتوبر ٢٠٠٦م، المجلد ٣، العدد ٣ ص ٣٢.

أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿الروم: ٨﴾.

وهذه الآية وردت في غفلة الناس عن يوم القيامة، والانشغال بالدنيا، قال ابن عاشور: «والاستفهام تعجيب من غفلتهم وعدم تفكرهم، والتقدير: هم غافلون، وعجيب عدم تفكرهم، ومناسبة هذا الانتقال أن لإحالتهم رجوع الدالة إلى الروم بعد انكسارهم سببين: أحدهما: اعتيادهم قصر أفكارهم على الجولان في المألوفات دون دائرة الممكنات؛ وذلك من أسباب إنكارهم البعث، وهو أعظم ما أنكروه لهذا السبب، وثانيهما: تمردهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن شاهدوا معجزته، فانتقل الكلام إلى نقض آرائهم في هذين السببين»^(١).

«وجاءت هذه الآية؛ للتدليل على قضية البعث، وهي من أهم قضايا العقيدة التي جاء القرآن يدعو للتفكير في مقدماتها الظاهرة في حياة الناس؛ وذلك بالتفكير في النفس البشرية وغاية وجودها ومحلها بعد نهاية أجلها، ومن بعدها النظر في السموات والأرض، أين سيدرك أن لكل شيء في هذا الوجود نهاية، ويتفطن بعدها إلى حقيقة اللقاء الأخروي والحساب والجزاء، هذه

(١) المصدر السابق ٢١/٥١.

القلوب وفاض على الألسنة، وكان مرافقاً لهم في كل حركاتهم وسكناتهم، ما يدل على استحضارهم للمعنى الربانية في كل وقت، وعلى كل حال.

فهم قيام في نهارهم يعملون ويجاهدون ويذكرون الله، وهم قعود وقت الراحة لا ينسون ذكره، بل حتى وهم نيام على جنوبهم يذكرونه.

هذه الحالة الربانية والخوف الشديد من الله جعلهم يرون كل شيء في هذا الكون دليلاً على وجود الله، وبديع خلقه، وعظيم حكمته.

فانطلقوا بأبصارهم يتفكرون ما بين السموات والأرض، فزادهم الانفتاح على كتاب الله المنظور معرفة لأسرار الوجود، وفقهاً لسننه ونظامه الدقيق، فامتألت قلوبهم بنور الله، وفاضت خشوعاً وإنابة لرب الكون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لتفجر ينابيع التسييح والإقرار بتلك العظمة والقدرة من قلوبهم على ألسنتهم فتلهج بالدعاء، راجين النجاة من عذاب النار، فبعملية التفكير هذه يغذون القلب بالإيمان، ويزيدون فيه نفحة اليقين، كما يصبغونه بصبغة الجمال النابع من جمال الكون وسحره، فتنتطع أفعالهم وأفعالهم ذوقاً وإحساناً مع الناس، وإبداعاً وإتقاناً في

النفس على ما جبلت عليه؛ فذلك أدعى للاستجابة؛ لهذا جاء الثناء على المتفكرين من أولي الألباب، هذه الفئة التي استحقت الثناء بجدارته؛ لأنها عملت بوصايا ربها، فوصلت إلى أعلى منازل السالكين إليه، فكانت بحق قدوة وجب التأسي بها.

وقد نالوا هذه المرتبة حين مدحهم الله سبحانه وتعالى في أواخر سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩١].

و(أولو الألباب) هم أصحاب العقول الصافية، والقلوب النيرة، والألباب جمع (لب) ويذكر اللب في مقابل القشر، يقول ابن عاشور: «واللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان؛ لأنه أنفع شيء فيه»^(١).

وقد وردت لفظة (أولي الألباب) في القرآن ست عشرة مرة، كلها على سبيل المدح والثناء.

وحاز أولو الألباب هذه المكانة المرموقة في رحاب الله؛ لأنهم تمسكوا بجبلي الذكر والفكر، هذا الذكر الذي ملأ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٦٤.

وهو يقرأ هذه الآية، بياناً لأسمى نموذج للمتفكرين في ملكوت الله سبحانه وتعالى، وفي هذه صورة لما ينتج عن التفكير من زيادة في العبادة، وسمو في الإيمان.

والظاهر أن الذكر الوارد في الآية على العموم، ويشمل الصلاة، وهو ذكر باللسان، وحضور القلب، فهم «الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته»^(٢).

ولما وصفهم تعالى بالذكر، ثنى بعدها بالفكر؛ لأن الذكر لا يكمل إلا مع الفكر.

وفي هذا يقول الألوسي: «قدم الذكر على الدوام على التفكير للتنبية على أن العقل لا يفي بالهداية ما لم يتنور بنور ذكر الله تعالى وهدايته، فلا بد للمتفكر من الرجوع إلى الله تعالى ورعاية ما شرع له»^(٣).

يقول الرازي في تفسيره: «في هذه الآية جمع لأصناف العبودية الثلاث، وتحقيق لمعنى الإيمان الذي هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله: ﴿قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله:

الحياة.

وقد جاء في صحيح ابن حبان عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة -رضي الله عنها- فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه، كما قال الأول: (زر غبًا تزدد حبًا). قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: (يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي) قلت: والله إنني لأحب قربك، وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبك وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]^(١).

وفي وصف السيدة عائشة رضي الله عنها لحالة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٣٨٦/٢، رقم ٦٢٠. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/١٥٨.
(٣) المصدر السابق ٤/١٥٤.

مجالات التفكير

تعددت مجالات التفكير في القرآن وسوف نتناولها فيما يأتي بالبيان:

أولاً: التفكير في الآفاق:

يعتبر الكون مجالاً واسعاً ورحباً تدور فيه أنظار الناس، ويعملون فيه عقولهم، ما جعل ميدان الآفاق أوسع مجالات في موضوع التفكير حتى غلب عليه، وأصبح إذا أطلق مصطلح التفكير أريد به آيات الله المنظورة المنتشرة في الكون، فكان مجالاً تنوعت فيه الصور والمظاهر، وتعددت حوله الآيات والدلائل، وكثرت داخله الأسرار والحكم.

والتفكير في الكون يكون تفكيراً في خلق الله من جهة دلالته على خالقه؛ لهذا استعمل لفظ (خلق) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَوْلًا عَذَابًا ثَارًا﴾ [آل عمران: 191].

فالتفكير ليس مقصوداً لذاته، بل الهدف منه بيان سر الإعجاز والقدرة، ومعرفة عظمة الخلق والخالق، والتفكير في خلق السموات يكون من جهة ارتفاعها بغير عمد ورحابة آفاقها، وإحكام صنعها، وشدّة إتقانها، ودقة نظامها، وثبات نواميسها بما يوافق حياة الإنسان، وما حوته من كواكب كالشمس

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع^(١).

ولنا في قصص السلف الصالح عبرة ومثل، فقد قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إنني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة^(٢). وأخرج ابن المنذر^(٣) عن عون قال: سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكير والاعتبار.

ف(أولو الألباب) ناس ارتقوا بقلوبهم وعقولهم عن برائن الأرض، فلم تعد تلامسها، وحلقوا ما بين السموات والأرض في رحلة فكرية قلبية، وصلوا من خلالها إلى عمق الأشياء، وانقلبت عقولهم من حالها إلى حال اللب، وهو أكمل وأخلص الأحوال، رأوا من خلالها غاية الوجود وحكمه العجيبة، وأساراه العظيمة، فنادوا ربنا ما خلقت هذا باطلاً، فكانت نتيجة هذا التواصل اعترافاً بالربوبية وتنزيهاً عن العبيية، منبعها الذكر الكثير والفكر الرصين؛ لينتهوا من هذه الرحلة الإيمانية بإدراك عظم ذنوبهم وتقصيرهم أمام نعم الله فاخترأوا الآخرة، وطمعوا في الوقاية من عذاب النار.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٤٥٦/٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٨٤/٢.

(٣) أخرجه ابن المنذر في تفسيره، ٥٣٤/٢.

فيه تسهيل لعمل الإنسان من إقامة الزراعة على سطحها التي هي عماد أكله وحياته، وبسطها طويلاً وعرضاً يسهل الانتقال في أجزائها شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، ومن عظيم آيات الله فيها تثبيت تربتها بالجبال الرواسي، وشق الأنهار فيها، وجعل فيها المياه الباطنية قريبة من سطح الأرض؛ ليسهل على الإنسان استغلالها، فلو كان على الإنسان إحضار المياه من البحار لما قامت زراعة ولا تجارة ولا حضارة، وذكر الأنهار بعد الجبال؛ لأن ماء النهر عادة ما يكون من ذوبان ثلج الجبل، فهذه آيات عظيمة على الإنسان الانتباه لها.

ولأن الإنسان بطبعه يكره البقاء على نمط واحد كان تنوع الثمار وكثرتها آية أخرى، وجعل من هذه الأنواع زوجين اثنين الحلو والحامض، الأبيض والأسود...، كما أن فيه إشارة إلى وجود الذكر والأنثى في كل نبات، فهما يتحقق معنى الزوجية، ويتكاثر النبات.

«ومن هذا يتبين أن كلمة زوجين تتضمن التقابل الذي يعم التقابل بين الذكر والأنثى، والتقابل في الألوان، والتقابل في الطعام، والتقابل في الصغر والكبر، وهذا كله في أرض واحدة، وكان في اتحاد الأرض واتحاد الماء أن تكون شيئاً واحداً في لونه أو طعمه...، ولكن تعددت وتخالفت، فدل

والقمر وغيرها، ونجوم مسخرات، وفي كل ذلك آية على صنع القدير، فلو أن الشمس تباعدت عن الأرض لتجمد كل شيء، ولو أنها تقترب منها لاحترق كل شيء، فكل قوانين الكون مبنية على نسب كمية وكيفية تناسب وجود الإنسان وتسهيل مهمته على الأرض، ففي اختلاف الليل والنهار من جهة الظلام والنور مراعاة لتحقيق الراحة والهدوء في الليل، والحاجة للضوء في النهار سعيًا للعمل.

والتفكر في الأرض وما حوته من آيات وعجائب تعجز الأبواب عن حصرها، من تنوع للكائنات إلى عظم الجبال وشق الأنهار واتساع البحار، وما تحويه من معادن، وفي كل منها عالم دقيق كبير المعاني كثير الغرائب تعجز العقول عن إدراكه؛ لذلك خصها الله سبحانه وتعالى بالتفصيل، وهي أقرب للإنسان من عالم السماء، فأفاق الكون لا يستطيع معرفة كنهها عوام الناس.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْآيِلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

فالأرض بسيطة للإنسان يسير فيها ويتقلب بين جنباتها، منها خلق، وفيها يعاد، وبها معاشه، جعلها الله قراراً للإنسان، وسخر له ما فيها؛ ليقيم شئونه عليها، فمدّها

هذا على وحدة الصانع الحكيم العليم المريد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»^(١).

وأشار إلى سنة التسخير، وهي سنة لها ارتباط وثيق بموضوع التفكير؛ لأنها تدخل ضمن إطار مهمة الإنسان على الأرض، وجاء البيان الإلهي عامًا شاملًا في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ ليطلب من الإنسان «أن يحلق في فضاء السموات وأن يغوص في أعماق الأرض بفكره ولما تفيده (ما) من الإبهام، فإنها تدفع الإنسان إلى التعمق في اكتشاف أسرار ما في السموات وما في الأرض، فهي شاملة للباطن المخفي، وللظاهر المشاهد من أسباب التسخير؛ لاستثماره في نفع الإنسان»^(٢).

فإبهام الآيات يشير إلى كثرتها وتنوعها «وذلك؛ لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية»^(٣).

كما أن في تنكيرها دلالة على الكثرة والتعظيم، فكل ذلك يتناسق مع العموم المدلول عليه بقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. ولأن التسخير بعيد الإدراك والمشاهدة جيء بالتفكر الذي يغوص في معاني ودلائل الأشياء، وكل إنسان على قدر علمه وفهمه وتركيزه يصل إلى إدراك المطلوب. وبالمقابل من ذكر التفكير في الأمور الكبيرة في الكون جاءت الإشارة إلى الأمور الصغيرة والتي قد يغفل عنها كثير من الناس، والتي تمثل في حد ذاتها معجزة من معجزات الخلق.

قال تعالى: ﴿يُمَكِّنْ لِي مِنْ كُلِّ الشَّرْبَةِ فَأَسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهام والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم^(٤).

فجاء لفت الانتباه في القرآن إلى عالم النحل، هذه المملكة الحصينة التي تحكمها قواعد وأركان يستحق أن يعي الإنسان نظامها ويحتذي به، والعجيب من أمرها أنها

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٥٠٢.

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧ / ٣٨٩٥.

(٢) منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، زياد خليل الدغامين، مجلة الفرقان، ص ٢٠٥.

(٣) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦١.

يحقروا خلق الله، أو يحقروا أنفسهم، فكل ميسر لما خلق له.

فنظرة القرآن للكون جاءت مناقضة لما شاع في فكر الإنسان القديم، من أن الكون والطبيعة مضادة تمامًا «للتصورات الكونية الميثولوجية القديمة التي جعلت الإنسان البدائي يستشعر الخوف من الكون، ويعتبره خارجًا تمامًا عن نطاق عمله وقدرته، ويفسر ظواهره المختلفة بعلم وهمية خيرة أو شريعة، أو آلهة يسترضيها بألوان الطقوس البدائية»^(٢). بل جعل منها دلائل على قضايا مصيرية؛ ليكون ذلك أزيد في إيمانه بالاعتماد على العلم واليقين، ويحسن التصرف في هذا الكون.

ثانيًا: التفكير في الأحكام الشرعية:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْرَهُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَعْفُ كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيدته، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: في زوال الدنيا وفنائها،

(٢) الإنسان والكون في الإسلام، التفتراني ص ٣٨.

تسير بدقة متناهية لا ترى فيها عوجًا أبدًا، فتختار مكانًا آمنًا في الجبال، وعلى الشجر؛ لتبني فيه خليتها حتى لا تصلها الحيوانات، ولا تطالها الأيدي، وتهندسه في أشكال سداسية؛ لتضمن استغلالًا تامًا للمكان يساعدها على وضع البيض والاعتناء به، كما أن كل فرد في هذه الخلية مكلف بمهام يدركها منذ فقسه، إضافة إلى أن النحل مضرب المثل للتفاني في الجد والنشاط، ودليل ذلك الشراب المعجز الذي شهد له القرآن الحكيم بالنفع والشفاء.

يقول الألويسي: «إن من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة التي مرت الإشارة إليها، وخروج هذا الشراب الحلو المختلف الألوان، وتضمنه الشفاء جزم قطعًا أن لها ربًا حكيمًا قادرًا، ألهمها ما ألهم وأودع فيها ما أودع، ولما كان شأنها في ذلك عجيبيًا يحتاج إلى مزيد تأمل ختم سبحانه الآية بالتفكير»^(١).

ومن حكم المولى أنه بين أن التفاضل بين الخلق ليس من جهة الفضل والاستحقاق؛ إذ إنه لا ميزة للنحل في الطول أو العرض أو الجمال، لكن بعمله وجهده وإتقانه نال العسل، وفوقها اختصاصه بسورة تتلى إلى يوم القيامة، وفي هذا لفت لعقول الناس، ألا

(١) روح المعاني، الألويسي ١٤/١٨٧.

وإقبال الآخرة وبقائها^(١).

قال ابن عاشور رحمه الله: «ولا يخفى أن الذي يصلح للتفكير هو الحكم المنوط بالعلة، وهو حكم الخمر والميسر»^(٢).

من أدب المؤمن مع ربه التفكير في أحكامه الشرعية، واليقين بأن المصالح متحققة يقيناً بالأخذ بأحكامه سبحانه وتعالى، وما أصاب الأمة من بؤس وانحطاط إلا بالبعد عن تطبيق الأحكام الشرعية.

ثالثاً: التفكير في النفس الإنسانية:

إن النفس البشرية مجال صغير من مجالات التفكير في الخلق، لكنه عظيم عظم ما يحويه من آيات ودلائل على قدرة المولى -جل وعلا-، ودعوة القرآن للتفكير في النفس تعمل على إثارة العقل للبحث في آفاقها، وتجلية كنهها واكتشاف أسرارها، وجاء الحديث عن النفس في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الَّذِينَ مِن بَلَقَايَ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ [الروم:

[٨].

وفيه توبيخ للكفار الذين قصرت مداركهم على الحياة الدنيا وشواغلها ونسوا العمل للآخرة، وفي خضم هذه الحياة تكون النفس البشرية مجالاً قريب التأمل، فلو

تفكر الإنسان في أصله ونشأته^(٣) ومراحل خلقه، أطواراً في بطن أمه يتقلب ما بين النطفة والعلقة والمضغة؛ ليتشكل جنيناً، ويخرج من الرحم وليداً، لا قدرة له على الإدراك أو التعقل ولا طاقة له بأي عمل، ثم يصير طفلاً فشاباً يافعاً، ثم شيخاً هرمًا، نفذت قوته، وساءت حاله؛ ليستقبله بعدها القبر، لأدرك قصر هذه الدنيا وفناء لذاتها، ما يبعث على إعادة النظر في حياته وتصرفاته؛ ليجعل منها درياً موصلًا إلى الجنة.

وجاءت آيات كثيرة تنبئ الإنسان بحقيقة نشأته وتذكره بأصله، حتى لا تأخذه العزة بنفسه وقوتها وجمالها وينسى فضل الخالق عليه وما أمره به من تكاليف، وتفرقت آيات الخلقة في القرآن وتشعبت الدلائل في كل آية بما يخدم السياق القرآني في كل سورة، وليعظم الأثر في القلب، ويحصل الإدراك الواعي بالمعجزات البيئات، فيعترف القلب والعقل بقدرة الخالق وإعجازه.

فشكل الإنسان وجمال صورته واستواء أعضائه ووظائفها على هذه الهيئة المعتدلة «أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجرم، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة تفضلاً منه ورعاية ومنة...، وإن عجائب الإبداع في

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٣٥ - ٤٤٠، مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٩٦.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٣.

في نفسه ولم يمحصها ويدافعها، وفي هذا يقول: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، ودافع الفكرة فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

فيه دعوة للنظر في النفس من جانبيين؛ جانب خلقها وعجائب صفاتها وسيرورة أجهزتها، وجانب النظر في أفعالها ومقاربتها للصواب، وصفاتها وكيفية تهذيبها.

وجعل أبو حامد الغزالي مجاري الفكر تصب كلها بما يزكي النفس ويهذبها، فهي أربعة عنده: الطاعات، المعاصي، الصفات المهلكات والصفات المنجيات، ثم يفصل في كيفية استشعار هذه المعاني الروحية بواسطة التفكير في كل نوع على حدة، نذكر مثلاً منها، يقول فيه: «فليتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وإن العلوم لا يثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن

خلقه لأضحخ من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله»^(١).

كما أن هناك من الحقائق التي تعيش في داخل الإنسان وهو غير قادر عن إدراكها كماهية العقل والروح، ولا يمكنه الاستغناء عنها «فهي وإن كانت من مكونات الإنسان التي صار إنساناً إلا أنها ليست مادية، ولا يمكن حصرها بين فكي الزمان والمكان اللذين لا قدرة للعقل البشري على الإدراك خارج نطاقهما، فهذا في حد ذاته أكبر تحد يدعو الإنسان للتواضع والإذعان»^(٢)، وعدم قدرته للوصول إلى حقيقة الأشياء نابعة من كونه بعيداً عن منهج الحق والإيمان.

والتفكر في النفس ينبه إلى التفكير في صفاتها وأعمالها، فالنفس كما يقول ابن القيم: «النفس دينية وطبيعتها أنها أمانة بالسوء»، وأمانة من صيغ المبالغة الدالة على الكثرة والاستمرار، فإذا عرف الإنسان طبيعة النفس حاول تغييرها ومجاهدتها وعدم الخضوع لطلباتها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

لذا يبين ابن القيم أن أصل أفعال الإنسان نابع من أفكاره وخوابره التي تركها تجول

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٨٤٨.

(٢) التفكير من الشهود إلى المشاهدة، مالك البديري ص ٦٩.

(٣) الفوائد، ابن قيم ص ٣١.

«واختلفت أقوال العلماء في المراد بالمودة والرحمة، فعن ابن عباس ومجاهد المودة: الجماع، والرحمة: الولد؛ وقاله الحسن. وقيل: المودة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض، وقال السدي: المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة؛ وروي معناه عن ابن عباس قال: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء»^(٣).

وكلها حالات يتجسد فيها معنى المودة والرحمة وليس بينها تعارض، «تفسير المودة بالجماع هو بداية ومؤشر على السكن القلبي، والجماع غالبًا لا يحدث إلا بعد وجود طمأنينة وسكينة بين الزوجين، فهذا هو الاستقرار الجسدي المؤقت يتبعه استقرار دائم، هو وجود التراحم والرحمة بين الزوجين، فهذه المودة والرحمة مدعاة لحصول التناسل وإيجاد الولد»^(٤).

ونلاحظ أن هذه الأسس المتينة هي في حقيقتها أسس عاطفية لبناء اللبنة الأساسية في المجتمع والحضارة وهي الأسرة. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لم ير للمتحابين مثل النكاح)^(٥).

يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش في ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد الشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم»^(١).

وقلما يتبته الإنسان إلى فضل المولى عليه في منحه نعمة الزوجية، وكونها من نفسه؛ ليسهل التقارب والتوافق، وجعل في تلك العلاقة التي بين الجنسين «سكنًا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارًا للحياة والمعاش، وأنسًا للأرواح والضماير، واطمئنانًا للرجل والمرأة على السواء»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فالسكينة والمودة والرحمة أسس بناء الأسرة السعيدة، وأركانها القويمة التي تقف بها سداً منيعاً في وجه المشكلات التي تعصف بها، فوجود هذه الأسس لا يعني انعدام المشاكل الزوجية؛ لأن الاختلاف حاصل بين البشر خاصة بين الزوجين من جهة التركيب والوظيفة والتفكير.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/١٤.

(٤) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء كمال قلجة ص ٦٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح،

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/٤٣٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٧٦٣.

وهي من السكون، والذي يكون بعد الحركة والنشاط.

وتعلقت السكينة بالمرأة لحاجة الرجل لها وطلبه لها حتى إذا وجدها هدأت نفسه واستقرت حياته، واستطاع أن يحقق النجاح في حياته، وهذه السكينة هي خصيصة في المرأة ووظيفتها الأساسية، بما ركب الله فيها من العاطفة والحنان؛ لتكون ملاذ الرجل الآمن، ومحضن الأولاد الحصين، وفق فطرة الله التي فطرها عليها، وبالمقابل يعمل الرجل على مبادلة المرأة مشاعر المودة والرحمة؛ وذلك لحاجة المرأة لهما، فطبيعة المرأة العاطفية تجعلها تنظر للأمر بمقياس العواطف، ونقصها في العقل والدين يجعلها تحتاج دائماً إلى الرحمة، وبمعنى أشمل، فالسكينة والمودة والرحمة مطلوبة في كل طرف.

ثم تأتي الرحمة في آخر هذه الأسس «لأن البشر عامة أبناء أغيار، وكثيراً ما تتغير أحوالهم، فالقوي قد يصير إلى الضعف، والغني قد يصير إلى فقير، والمرأة الجميلة تغيرها الأيام أو يهددها المرض»^(٣).

وبهذا الرباط المتين تتوثق عرى البيت النموذجي، ويلاحظ في الآية أن الله سبحانه وتعالى جعل السكينة هدفاً للتزواج، ومقصداً له، فهي هبة ربانية، في حين أن

(٣) تفسير الشعراوي ١٨ / ١١٣٦٠.

وهذا يدل على أن الإسلام لم يهمل هذا الجانب المتأصل في الإنسان، وراعى فيه تكوينه النفسي والروحي، وجعلها آيات يتعمق فيها العقل بالتفكير؛ ليكتشف مدى دلالتها على مبدع هذه النفس البشرية.

فالمودة بين الزوجين تمحو آثار الأخطاء والزلات الواقعة في الحياة، وتنمي روح المشاركة بينهما في مصاعب الحياة بالتعاون والتكافل في الأفراح والأتراح، والرحمة بينهما تجعلهما يغضبان الطرف عن التقصير الوارد منهما، وتحمل بعضهما في حال المرض أو الكبر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما الود فهو خالص الحب والطفه، وأرقه وأصفاه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة»^(١).

والمقصود من السكينة السكن القلبي؛ لأنها ارتبطت بحرف الجر (إلى)، والتي تأتي بمعنى الغاية، في حين تأتي (عند) بمعنى المكان؛ لأنه «يقال: سكن (إليه) للسكون القلبي، ويقال: سكن (عنده) للسكون الجسماني»^(٢).

باب ما جاء في فضل النكاح، ٥٩٣/١، رقم ١٨٤٧، والمحاكم في المستدرک، کتاب النکاح، ١٧٤/٢، رقم ٢٦٧٧. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٦٢٤.

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص ٤٦.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩٣/٢٥.

وبين الذكر والأنثى، وتدبر هذا المعنى الدقيق في قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأَ إِذَا يَمْسَى ۝١﴾^(١) وَالتَّهَارُ إِذَا تَجَمَّأ ۝٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝٤﴾ [الليل: ١-٤].

فهذا الاختلاف ناتج؛ لأن لكل منهما مهمته، كما أن الليل للراحة، والسكون والنهار للسعي والعمل، وبتكاملهما تمضي الأيام، وفي هذا إشارة إلى التكامل بين الرجل والمرأة، فكما أن الليل لا يساوي النهار في العمل المؤدى في كل منهما، فلا مجال لمساواة وظيفة الرجل بوظيفة المرأة في الحياة، فلكل منهما خصائصه الجسدية والعقلية والنفسية التي تمنحه القدرة على أداء مهمته، ومن أجل ذلك كان المناسب لآية الزوجية لما تحتويه من آيات عدة وأسرار في خلق الله تعالى وحكمه أن يربط تحصيلها بالتفكير.

رابعاً: التفكير في آلاء الله ونعمه:

يعتبر عرض آلاء الله ونعمه المتفضل بها على البشر من أكثر الأساليب انتشاراً في القرآن الكريم، وذلك بهدف تنبيه الناس على آيات الله وبيان قدرته وعظمته وحكمته في الخلق، ودعوة لهم للتفكير فيها قصد زيادة الإيمان وشكر الخالقها، وإيقاظ الهمم النائمة للاستفادة مما مكن الله الإنسان منه، كما أن فيها لمسة من الجمال تريح الإنسان،

المودة والرحمة وربطهما بفعل الجعل، والذي يقتضي إحداث الشيء بعد تكوينه فهما أمران يعمل الإنسان على إحداثهما؛ ذلك أن الرجل لا تربطه بالمرأة أية معرفة أو رابطة، لكن بفطرته يميل إليها ويسكن لها، حتى إذا تم الزواج يحدث الله بينهما المودة والرحمة بعد أن لم تكن.

من أجل هذه المعاني استدعي التفكير في آية الزوجية؛ لاحتوائها على عدة آيات، يفصلها الطاهر بن عاشور بقوله: «منها أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج، ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه، ولم يجعلها من صنف آخر؛ لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنساً بين الزوجين ولم يجعله تزواجاً عنيقاً أو مهلكاً كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة»^(١).

فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار...، لذلك تأمل دقة البيان القرآني حين جمع بين الليل والنهار،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧١/٢١.

تحتاج إلى أعمال الملكات العقلية التي أمد الله بها الإنسان، وعلى رأسها التفكير؛ للقيام بأداء حق هذه النعم في الشكر.

ومن أعظم هذه النعم نعمة الهداية الربانية، فما كان إنزال القرآن عبثاً بل هو الحق، به تستبين حياة الناس، فلولا القرآن ما كان العقل وحده قادراً على كشف نظم الحياة، وإدراك مغزاها، ولما كان القرآن معجزة تعجز عن فهم بعض آياته العقول، أرسل الله الرسل؛ لتبين للناس معاني الذكر الحكيم، وليكونوا قدوة لهم في التطبيق، وأيدهم بالمعجزات؛ لإقامة الدليل القاطع على منكري الرسالة.

كما ذكرهم تعالى بنعمة الماء التي بها يحيا من على الأرض، فهو شرابهم، وهو سقي زروعهم التي منها غذاؤهم وحيواناتهم، ونسب الإنزال إليه؛ لأنه لو تركه في أيدي البشر لاستقوى به القوي، وضاع حق الضعيف فيه؛ لذلك جعله آية يستحق الشكر عليها، وهذه النعمة في حد ذاتها قد تصبح نقمة إذا ابتعد الإنسان عن المنهج القويم، فتكون مطراً شديداً يدك عرش الظالمين.

والتذكير بالنعم يكون في جو مليء بصفات الرحمة والكرم والفضل، تجعل قلب الإنسان يستحي من خالقه وتستنهضه للتأمل فيها وفي غيرها، وترغبه في البحث

هذا ما يؤثر على نفسية الناظر والمتفكر فيها بما يكسبه الراحة والتركيز، ويحدث تغييراً في معتقداته وأفكاره. وهذه الآلاء تملأ السماء وتفيض بها الأرض، لكن قلوب الناس غافلة عنها، فتكريرها وإعادة التذكير بها يبعثها من جديد ويستثير العقل فيها.

ويهدف القرآن من عرض الآيات الكونية والمخلوقات وربطها بالعمليات العقلية تنبيه الإنسان إلى دور العقل في اكتشاف نعم الله عليه، وتسخيرها لإقامة الخلافة الخاضعة لله وإحداث التكامل والتوازن الكوني، وكل آلاء الله المرتبطة بموضوع التفكير تعتبر من أساسيات الوجود.

ويعرضها القرآن الكريم كنموذج يحتذى به، ولعقل الإنسان الحرية في استكشاف باقي الآيات بواسطة المنهج الذي علمه الله له في القرآن.

ونعم الله تعالى على الإنسان كثيرة، يقول تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا إِلَهًا لَّا يَمْلِكُ لَكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [النحل: ١٨].

وهي دعوة لذوي العقول النيرة أن ينهضوا بأعباء النظر الدقيق في آلاء الله ونعمه، التي لا يحصيها حاص، ولا يعدها عاد، ولو اجتمع كل البشر وأعملوا عقولهم لن يتتوها أبداً من القراءة، ولن يطووا هذه الصحف؛ إذ كلما نظروا إلى آيات الله جاءهم منها جديد، كما نبه سبحانه وتعالى إلى أن هذه النعم

الأصيلة من عرضها، مع دعوته إلى البحث في أعماقها، واستشارة الفكر والوجدان؛ لاستلهاام الحكم والعبر منها.

وهو منهج قرآني فريد، يخرج القرآن من دائرة الكتب العلمية التفصيلية، ويبقي له دور الدافع المثير للعقل لكي يقوم بدوره المنوط به، وهو دور قد لا يبين للمستشرقين الذين ينفون عن القرآن دوره في الاهتمام بالعقل والعلم، ويطمسون أعينهم عن حقيقة موقع العقل كأداة ووسيلة كشف لنواميس الكون، لا كما يقصدونه هم ويجعلونه مصدر المعرفة الأساسي.

خامسًا: التفكير في المآل والمصير:

وهذا المجال هو أحد مجالات التفكير التي أمر الله عز وجل بها، فالدنيا دار ابتلاء وعمل، والآخرة دار راحة وقرار، وكان التفكير في الدنيا والآخرة أول دعوة قرآنية للتفكير، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَا كُنْتُمْ تَنفَكُونَ﴾ (٣١) في **الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]؛ لأنها وردت في سورة البقرة، وفيها دعوة؛ لتحصيل الخير الكثير، وتحقيق لمصالح الدارين، ومعرفة فضل الآخرة على الدنيا، وجاءت هذه الآية بعد بيان حكم الشرع في أمور شديدة تميل إليها النفس هي الخمر والميسر والإنفاق. وختمت الآية بالتفكير؛

والاستكشاف؛ لأن هذه النعم من الممكن التفكير فيها وإعمال العقل من غير أدوات علمية أو أجهزة مخبرية أو وسائل تكنولوجية دقيقة، فمجرد النظر الدقيق والبحث في دلالتها وغايتها يجعلها موضوعًا قابلاً للتفكير.. إضافة إلى أنها موجودة على مر الزمن، ظاهرة للعيان ليلاً ونهارًا، تعاقب عليها جميع البشر، ثابتة لمن أراد تجديد النظر فيها.

وهي متعددة الأشكال، فمن السماء إلى الأرض، وما بينهما من كائنات، هذا التنوع يضيف عليها طابع التعدد والتجدد، فأين حلقت يبصرك تجد آية من آيات الله تأخذ بالباب العقول في حسننها وجمال إبداعها، ما ينفي عنها رتابة السأم والملل.

وما يميز هذه الآلاء أن كلها هدفها واحد، فهي لم ترد عبثًا في القرآن، بل هي دلائل لقضايا أكبر منها تتعلق بأصول الإيمان (الألوهية، النبوة والوحي، البعث)، تعتمد على مرتكزات مشتركة، وإن اختلفت مواضعها، وتنوعت، فهي ليست غاية في نفسها، بقدر ما هي دليل للوصول إلى اليقين، وهو ضابط ينبغي التنبه له، والتقيد به لكي لا يجنح التفكير فيها إلى مجال التفلسف، ويخرج عن دائرة الإيمان؛ لذلك استعمل القرآن أسلوب التعميم والإجمال في عرض هذه النعم، حتى لا يتعد عن الغاية

فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نَفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ ﴿٢٤﴾ [يونس:

٢٤].

ففي هذه الآية يضرب تعالى مثلًا للحياة الدنيا التي يتنافس عليها الجاهلون، ويتكالب عليها الغافلون، حتى ينسون العمل للأخرة، وهي في حقيقتها كأرض أنبت نباتًا فنما وازدهر وافتتن به الناس، وظنوا أنهم أحاطوا بشمره وجنيه، حتى جاء أمر الله بالإهلاك، وغدت الجنة حصيدًا خامدًا، وهذا لاغترار أهلها بها، ونسيانهم فضل الله عليهم.

وجاء تشبيه الحياة الدنيا بالنبات لعدة وجوه^(٣) ملخصها:

«أحدها: أن عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في هذه الدنيا، كعاقبة هذا النبات، الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه؛ لأن المتمسك بالدنيا إذا عظمت رغبته فيها يأتيه الموت.

وثانيها: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها، لا يحصل له عاقبة تحمد.

وثالثها: لما صار سعي هذا الزرع باطلاً بسبب حدوث المهلك، فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

ورابعها: أن مالك هذا البستان لما أتعب^(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/٣٠٣.

تحريراً على استحضار العقل دائماً، في كل ما يخص أحكام الحياة، ومعرفة الغاية منها. وبيان حقيقة الدنيا وسرعة زوالها جاء في عدد كثير من الآيات والأحاديث، وكان هديه صلى الله عليه وسلم أن يحث الصحابة والمؤمنين على الزهد في الدنيا والعمل للأخرة، فقد أورد مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء)^(١).

وعند البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: (إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزيتها)^(٢).

ومن الآيات التي دعت للتفكير في الدنيا

قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَرْسَلْنَاهُ مِن السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّ عَلَيْهِمْ أَنهَآ أَمْرًا تَبَلًا أَوْ نَهَارًا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٤/٢٠٩٨، رقم ٢٧٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، ٢/٥٣٢، رقم ١٣٩٦.

نفسه في عمارته، وعلق قلبه بالانتفاع به، فإذا حدث السبب المهلك صار العناء الشديد سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، فكَذَلِكَ حال من أحب الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات صار العناء الذي تحمله في تحصيل الدنيا سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

وخامسها: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد؛ لأننا نرى الزرع الذي انتهى إلى الغاية في الحسن، ثم إن ذلك الحسن يزول بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى، فذكر تعالى هذا المثل؛ ليدل على أن من قدر على ذلك كان قادرًا على إعادة الأحياء في الآخرة؛ ليجازيهم على أعمالهم.

والتعبير بالأكل عن التمتع بالحياة تعبير حسي غاية في البلاغة، فهو يوحى بالحركة في الوصف، كصورة الناس وهم يتهاوتون في يومهم، وهمهم كسب القوت، وتحصيل لقمة العيش، كل ذلك والغفلة تغمرهم، والشهوات محيطة بهم يتسابقون نحوها، وعند تأمل المثل يلاحظ «أن المثل يحكي قصة مضت وانتهت، ويتحدث عن حياة قامت ثم بادت، ولكن هذه اللقطة ﴿فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ [يونس: ٢٤].

تظل تنبض بالحركة ترى فيها الناس

والأنعام لا يزالون يأكلون». وفي تصوير زينة الأرض وزخرفتها كالعروس إبراز لحقيقة الدنيا في عيون الغافلين والمفتنين بها، وفي ظن أهلها تصوير لجهالة الإنسان بتمكنه من نعيمها، لظنه أنه أصبح أقوى وأقدر، وأنه وصل إلى كل ما يتمنى من الدنيا، فكلما رأى لذة أو زينة أو منصبًا أو مالا سعى ليكون صاحبها، لهذا ارتبط التفكير بحقيقة الدنيا؛ لينبج على أن معرفة حقيقتها من الأمور العظيمة التي لا يجب أن يذهل العقل عنها، فهي دار بناء ومزرعة للآخرة، وعدم إدراك هذه الحقيقة يعني الخسران في الدارين.

ولكون هذه الحقيقة قد تغيب في لحظات النشوة الدنيوية، فينسى الإنسان حقيقة الموت ويغره أمل الحياة، فلا دوام لحال ولا لبشر أو لذة فيها؛ لهذا لا بد من تعميق الفكر فيها، والتبصر بأحوالها والاعتبار بأحوال السابقين فيها؛ ليزيد الإيمان، ويتنور القلب ويزهد فيها؛ لذا خص أهل التفكير بالنظر فيها، لأنهم «أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور»^(١).

وفي المقابل من بسط الأمثال للتهديد في حال هذه الدنيا، جاء التفكير في موضوع عظيم فيه من الدلائل على قدرة الله وتفرد

(١) جامع البيان، الطبري ١٥ / ٥٥.

كل يوم وهم عنها ساهون، ألا وهي النوم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَيْهِ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

ففي هذه الظاهرة يقبض الله الأنفس كلها، فيتوفى التي انتهى أجلها، ويرسل الأخرى حتى يحين أجلها، وفي قبض الأرواح عند النوم منع للنفس عن التصرف أو الإدراك مع بقاء الجسد حياً تسير عملياته البيولوجية بصفة عادية، ومن كان قادراً على قبضها وإمساكها كل يوم ثم بعثها للحياة من جديد هو أقدر على قبضها إلى يوم القيامة، ومن ثم بعثها لتحاسب على أعمالها.

فقد جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: (باسمك اللهم أموت وأحيا)، وإذا قام قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)^(١).

وفي هذا إشارة إلى ربط نعمة الاستيقاظ بوقت المعاد الأكبر، وحقيقة البعث، وفيه تأكيد على حقيقة القبض والإمساك، وتربية للمؤمن على تذكر الموت حال نومه.

فالنوم في أصله موت صغير، فيه تحضير

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، ٥ / ٢٢٦، رقم ٥٩٥٣.

الناس لموعد الموت الأكبر، فكما أنكم تنامون كل يوم ولا تفيقون إلا بإذن الله تعالى فكذلك الموت هو نوم بإذن الله لا عودة بعده إلى هذه الحياة إلا إلى يوم الحساب؛ لأنه نهاية الطريق في عالم الشهادة، ونقطة البداية في عوالم الآخرة؛ لذا وجب على كل نفس التزود له، فمن يدري في أي لحظة يحل أجله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَبَعَثَ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي استعمال لفظ (آيات) في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَيْهِ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

دليل على ما تحويه آيتا النوم والموت من أسرار لا يفقهها إلا «من كان مكيئاً في علمه ومعرفته، قديراً على البحث والتحصيل، بصيراً بخطى الفكر والأنحاء التي قد تفضي إليها نتائج البحث والتقصي»^(٢)، لهذا كانت الخاتمة بالتخصيص لقوم تتوفر فيهم هذه الصفات فيتفكرون فيها.

(٢) القرآن ومنهج التفكير، محمد حجازي ص ١٢٩.

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمُ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠١].

ومع كل هذه المواعظ إلا أن كثيرًا من الناس على كفرهم بالبعث واللقاء. ويلاحظ أن القرآن قد خاطب الناس في هذه القضية بأدلة عقلية وأمثلة واقعية؛ لأنها من دلائل عالم الغيب الذي لا يستطيع الإنسان التكهن به، واستحضار التفكير كعملية عالية من عمليات العقل يشير إلى أهمية الموضوع وأثره في حياة الإنسان وآخرته؛ لتعلقه بدار الابتلاء ودار الجزاء.

سادسًا: التفكير في آيات القرآن الكريم:

إن القرآن العظيم هو معجزة الله الخالدة على الأرض، والمتحدى بها كل البشر، أنزله الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، نورًا وهداية للخلق، معجز بألفاظه ومعانيه، لا تنقضي عجائبه لمن يمعنون التفكير في رحاب آياته، ويجيلون العقول والقلوب في أسرار كلماته ونظمه، يقول الإمام السعدي: «ولعلمهم يتفكرون فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه»^(٣).

وارتبط التفكير في آيات الذكر بآيتين هما:

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤١.

«فمن تعرف على أسرار النوم، وما يتخلله من أحلام مرعبة ورؤى طيبة مبشرة استطاع أن يتصور الموت وما يصاحبه من أحوال القبر والبرزخ»^(١).

وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم الحث على زيارة القبور بعد النهي عنها مخافة دخول الشرك للقلوب؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، فقد قال: (زوروا القبور، فإنها تذكركم الموت)^(٢).

«هذه الزيارة هدفها الأول التذكير بالموت، وترقيق القلب بتذكر الذنوب، ما يجعل الإنسان يعتبر بمن قبله، وما كانوا فيه من نعيم وصحة، ثم صاروا إلى قبور تأويهم، ولم يغن عنهم مالهم ولا جاههم ويسارع بالتوبة، فالموت حقيقة لا يمكن الهروب منها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَبَيْنَكُمْ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ولا حتى العودة بعدها لتصحيح الخطأ، وتصليح العمل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ

(١) التفكير من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص ٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، ٦٧١/٢، رقم ٩٧٦.

قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَدَشًا مُتَصِدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فالآية الأولى وردت في معرض بيان وظيفة الرسل، وتأكيد على بشريتهم، ما فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بما كان يهتمه به المشركون، ورد واضح على افتراءاتهم وشبهاتهم التي كانوا يثيرونها حول الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر لما تميزت به دعوات الرسل من الحجج الداحضة، والحقائق الدامغة؛ لتنتهي ببيان دور هذا القرآن في كونه ذكر للإنسان لما فطر عليه، وموعظة للغافلين، وأن الرسول الكريم موضح لما جاء فيه، مفصل لأحكامه. وتحصيل هذه المعاني لا يكون إلا بالتفكير فيه والتدبر لمعانيه، فجاءت الغاية بالبيان وأسندت للرسول توضيحاً للمهمة الأساسية له كون الناس غير قادرين على فهم مقاصد الشرع وحكمه بأنفسهم؛ لقصور مداركهم عن ذلك، وتسهيلاً لهم بالأخذ به. والآية الثانية جاءت تتحدث عن عظم تأثير القرآن في النفوس، وتمثيل أثره بصورة محسوسة لعل القلوب تثوب له فتحشع عند

تلاوته، وتدبر معانيه، وتعمل بأحكامه، وتتخذة دستور حياة، قال السعدي: «فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طريق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن، والتدبر لمعانيه»^(١).

كما أن من التفكير في آيات القرآن التفكير في عاقبة من لا يتعظ بها أو يعمل بها، وفي هذا تنبيه لعظم الجرم المقترف، فالهدف من إنزال القرآن هو العمل به في ميادين الحياة، وإهمال هذا مخالفة للقرآن الكريم وللمقصد منه، وجاء الحث والترغيب على ذلك بتصوير حال المهمل لأحكام القرآن بحال خسيصة في آية سورة الأعراف؛ لينهض كل فرد ويغير حاله، والمطلوب التفكير العميق في هذه القصة؛ للاعتبار والاتعاظ بها.

ومن النظر في القرآن النظر في نظمه، وهذه خصيصة امتاز بها عن سائر المعجزات، فهو حسن التنسيق، محكم الترتيب، قوي الأثر، سهل الفهم، موسع التفسير، متلاحم النسيج، مترابط الأفكار، ودقيق المعاني، يجعل لقارئه ملكة تمكنه من «تقييم أقواله وأفعاله وحركاته وخطراته وأفكاره ونواياه وجل تصرفاته، ووزنها بذلك الفرقان...»، فالقرآن يكون بمثابة

(١) المصدر السابق ص ٧٩٢.

لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

[الرعد: ٣١].

والتلاوة لها معنيان:

الأول: قراءة آياته بتحقيق حروفه وصفاتها والتمكن من أحكام تجويده.
والثاني: اتباع آياته بالاستجابة لأوامره، وتحليل حاله، وتحريم حرامه، والعمل به في الحياة.

وذلك معنى أداء التلاوة بحقها، كما كان عمل الصحابة، وليس مجرد تحريك اللسان بالكلمات والقلب لادِّ والعقل ساو.

فقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: «فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً».

لذا ينبه ابن تيمية قارئ القرآن على أن يظل «دائم التفكير والتدبر لألفاظه واستغناؤه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده»^(٣).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٠/١٦.

النموذج المعرفي الكلي للإنسان»^(١).
والتفكير في آياته باعث على الخشية الإلهية لما فيه من أوامر ومواعظ وزواجر، كما أن هذه الخشية تجعل الإنسان يتلذذ بمعانيه وتكسبه الإحساس بالأمان والطمأنينة القلبية، والسكون النفسي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكروهم الله فيمن عنده)^(٢).

وفي هذا تنبيه للإنسان الغافل المعرض عنه؛ كي يتفطن لقسوة قلبه وغلظة طبعه، كما أن فيه إشارة إلى ثبات النبي صلى الله عليه وسلم، وقوته التي امتن الله بها عليه، وجلده في تحمل تبعات التنزيل والبيان.

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَبِيلاً﴾ [المزمل: ٥].

فهو مدح للنبي؛ لتحمله ما لا تطيقه الجبال الرواسي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ جَمِيعًا أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ

(١) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، طه جابر العلواني ص ٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٤/٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

وتكرار الفكر والتأمل هو الكفيل بإخراج شيء من كنوزه المخبوءة»^(٢).

لأن قراءة القرآن بالتفكير أصل صلاح القلب، ففيه حياة القلوب والأبدان، «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا، والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكمالها...، فإذا قرأه بتفكير ومر بأية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم»^(١).

ويعد القرآن قائداً للعقل، ودليلاً له في معترك الحياة، يأخذ بناصيته إلى النور المبين، والطريق المستقيم، فالعقل ذو رؤية محدودة لا تتجاوز الواقع المرئي أمامه، والقرآن هو التفسير السليم الوحيد لحقائق الكون والكاشف للسنن الإلهية فيه، يخاطب العقل على حسب مستواه، ويوقظ الفطرة بأسلوبه السلس، فيحفز النفس على النهوض بتكاليف الأمانة الربانية.

«ولا يخرج كنوزه إلا المتفكرون الذين يكررون الفكرة فيه، ويعيدون النظر مرة بعد أخرى، ويتعاملون معه بالتدبر الطويل...؛ إذ إن المتفكر بما يتضمنه من عمق النظر

(٢) مفهوم التفكير في القرآن الكريم، زيلعي هندي ص ٧٧.

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٧.

أولهما: إبطال عبادة غير الله، ونقض الأوهام والخرافات التي تدعو إلى اتباع معتقدات الآباء، وترفع هالة التقديس عن الأفكار والمعتقدات المتوارثة، ببيان الآيات الدالة على ضعف تلك الآلهة.

وثانيها: إثبات وحدانية الله عن طريق الدعوة إلى التفكير، والنظر الدقيق في آفاق الكون وعجائب النفس، والانطلاق من بديع صنعه، ودقة نظامه للوصول إلى وحدانية خالقه وفاطره.

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا الكون والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان، فقد كان القرآن يستعمل السموات والأرض كدليل وبرهان؛ ذلك أنها أجل وأعظم من دليل النفس.

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

لذا يقول الكندي: «إن في نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه في بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الوجه الأصلح في كون كل كائن، وفساد وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل؛ لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم»^(٢).

نتائج التفكير وثمراته

للتفكر ثمرات يجنيها العبد المتفكر منها:

أولاً: الاهتداء إلى وجود الخالق ووحدانيته:

لقد كانت دعوة القرآن الكريم للتفكر والتدبر في آفاق الكون ذات أهمية بالغة، كونها تهدف إلى ترسيخ معنى حقيقة خلق هذا الوجود ومعرفة خالقه، وإدراك عظمة جلاله، وبديع قدرته، والتمعن في عجيب خلقه، ولطيف حكمته؛ لذا فقد عني القرآن ببلورة العقيدة الإيمانية وزرعها في النفس بحيث تكون القاعدة التي ينطلق منها الإنسان في رحلته إلى الكون والحياة؛ قاعدة تحكم أهدافه وتصوراته وقراراته، وهي أول مبادئه في الحياة، فإذا حسنت علاقته بخالقه استطاع أن يحسن علاقاته بكل ما في الكون، وكلما عظم اكتشافه لما في الكون عظمت معرفته بخالق الكون؛ لذا يقول ابن رشد في حسن معرفة الكائنات: «وكلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم»^(١).

هذا ما جعل منهج بناء العقيدة في القرآن يقوم على أساسين متينين:

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد ص ٢، ص ٢٥.

(٢) رسائل الكندي الفلسفية، الكندي ص ٢١٥.

والقرآن لا ينفك يوجه الأنظار والعقول والقلوب إلى كتاب الدنيا المفتوح، ويأمره بتفعيل وسائل إدراكه؛ لتبدي له آفاق الجمال والجلال، وتريه الكون محراباً كبيراً للعبادة، ويتيقن بأن الدليل على وجود الله هو نفسه الدليل على وحدانيته سبحانه وتعالى؛ ذلك أن حقيقة وجود الرب الخالق المدبر لهذا الكون كامنة في نفوس البشر، ومرتكزة في أذهانهم، وتعود في أساسها إلى الميثاق الذي أخذه الله على البشر عند خلقه لهم.

قال تعالى: ﴿وَاذْأَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لكن الدعوة إلى التفكير في الكون والوحي ارتبطت بضابط مهم هو تجنب التفكير في ذات الله، هذا الضابط الذي جاء التحذير منه في السنة النبوية بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل)^(١).

وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء: «فإن جاوزت النظر في الأفعال

إلى النظر في الذات فقد حاولت أمراً إمرأ، وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلماً وجوراً، فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشراقه، وانتكصت على أعقابها اضطراباً وقهراً»^(٢).

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن أناساً سيتفكرون في الخلق حتى يؤدي بهم إلى الوقوع في ظلمات الكفر، فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله)^(٣).

وهنا يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم كيفية معالجة الشكوك والوساوس عندما تعرض لنا، ويأمرنا بوجود التوقف عن التفكير، وتشهير الإيمان خوف تتبع زلات العقل، والوصول إلى الضلال، فهذا الحديث وسابقه يبين لنا الحد المسموح به من التفكير، بسبب نقص الإدراك وقصور تحقيق المعرفة وسوء التقدير.

فكيف تختار العقول مبدأ التعطيل،

(٢) التفكير في خلق الله الإنسان، الأرض، السموات، الغزالي ص ٢٢-٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، ١/١١٩.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/٢٥٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣/٨٤٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/١٣٦. والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/٣٩٥، رقم ١٧٨٨.

ومن يخرجها كل صباح تطوف في الحقول والبساتين، وتنتقل من زهرة لأخرى؛ لتعلم زميلاتنا بوجود الرحيق، فتجمعه وتحفظه ثم تعود إلى خليتها من نفس طريق الذهاب ولو كان على بعد أميال، ثم تصنع منه شراباً متنوعاً، شهد له القرآن بالشفائية، فهذا دليل على عناية الله بمخلوقاته وحسن تدبيره ودعوة للتمعن والتفكر فيها وفي عالم الحشرات أيضاً؛ ليزيد إيماننا بأن خالق النحلة، ومدبر شئوننا هو نفسه خالق السموات والأرض وما بينهما.

ومن العوالم التي طالب الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتفكر فيها هو النفس البشرية، فالتعمق في أسرارها يجعل الإنسان يؤمن إيماناً جازماً بالله؛ لعلمه أنه غير قادر على الإحاطة بكيفية عمل أجهزته الحيوية، ولا التحكم فيها أو تسيير عمليات الحياة فيها وفق هواه، بل هو عاجز حتى على شفاء نفسه في حال المرض، أو إمساك نفسه عن الموت، فيتأكد أنه كما لنفسه أجل محدد فلهذا الكون أجل آخر تنتهي به الحياة على هذه الأرض، ويجازي على أفعاله فيها، ما يقوده للإيمان بالبعث والجزاء، وبحسب هذه المعرفة الإلهية تعظم درجة المتفكر في الآخرة.

ومقدرة الإنسان على تطويع الطبيعة، والاستفادة من ثرواتها، والسيطرة على

وتستحل الفهوم مبدأ التشبيه للخالق، واختلاف الكائنات وتنوعها سر إبداعه، فقدرته الغير محدودة، وعلمه ليس لهما نظير فهو الخالق العليم القدير، وقد حاولت بعض الفرق الإسلامية الولوج من هذا الباب لكن تاهت وخابت، ولم تبصر النور؛ لاحتجابه عن العقل.

والنظر العميق في الآيات التي تدعو إلى التفكر ترسم لنا صورة التوحيد الحقيقي، فسورة الرعد بآياتها الكونية تزرع في النفوس بذور التوحيد من خلال عرضها لبراهين الإيمان، بالنظر في الأرض، وما عليها من آيات، ثم خروج النبات والثمار وتنوعها واختلافها، وتأصيل الأشياء إلى زوجين اثنين، ثم الانتقال إلى ما به بقاء الحياة على هذه الأرض من تعاقب الليل والنهار، وختمها بالحث على التفكر.

كما جاءت الإشارة إلى عالم الحيوان، وما فيه من أدلة بسيطة تنبئ بوحديته تعالى، وإليه تمت الإشارة في القرآن بمملكة النحل، تلك المملكة التي تحويها خلية صغيرة، لكن فيها نظام يعجز البشر عن وضعه وعن اتباعه، نظام قائم على معرفة كل فرد لدوره في هذه الحياة، فيسارع للقيام به بجد وتفان، نظام أساسه التعاون والعمل والإتقان، فمن علم النحل هذه القوانين ومن يسر لها طعامها وهي أضعف خلق الله،

بذلك آثارًا مشاهدة تدل على صفات الله سبحانه وتعالى.

وبهذه النظرة الإجمالية للآيات، وبهذه الدعوة للتفكير نتبين أنها كلها مجالات تدل على أن خالقها ومدبرها واحد، إلا لمن عاند واستكبر وأبى، فإذا كان الكون بما فيه من «أفاق السماء وفجاج الأرض، تسبح بحمد ربها، فلماذا نشذ نحن ولا نصطبغ بما اصطبغ به الكون كله»^(١).

ويمكن الاستفادة من التفكير في هذا العصر لمواجهة موجة الضلال المنتشرة في العالم اليوم، فبالرغم من كل التطور العلمي والتكنولوجي الحاصل، إلا أن الإنسان اليوم بات أكثر بعدًا عن الفطرة السليمة، وعن اكتشاف العلاقة بينه وبين خالقه وبين الكون، وقد يكون أقرب الناس إلى التوحيد هم العلماء، كونهم أكثر الناس إعمالًا للعقل، أو اكتشافًا للحقائق؛ لذا نسمع بين الفينة والأخرى عن دخول عالم من الغرب إلى الإسلام نتيجة ما أوصلته إليه بحوثه التي تلخص له مفهوم الخالق الواحد القادر المبدع.

وفي هذا يقول أحد العلماء: «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما

قوتها بقانون التسخير الإلهي، تؤكد استحالة أن تكون هي مسيرة نفسها، وما اعتداء الإنسان إلى هذا القانون إلا بما أكسبه الله له من وسائل تعينه على ذلك بما فيها العقل وملكاته، وضعف الإنسان أمام قوة المخلوقات الأخرى، ثم سيطرته عليها بفضل الله تعالى لدليل أكيد على صفاته العلية -جلا وعلا-، كما أن قانون الزوجية الذي يحكم هذا الكون يبين التفرد الإلهي، فكل شيء في هذا الكون أصله من ذكر وأنثى إلا خالق الكون، والتفكير في هذا القانون، والبحث عنه في أرجاء هذا العالم يجعل القلب يصدق بوحدانيته تعالى.

كما أن التفكير يعزز في النفس الإيمان بالأسماء والصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم، أو وصفه بها نبيه عليه الصلاة والسلام، فتجزم العقول حينما ترى المخلوقات أن لها موجدًا، وأنها لم يخلقها العدم، كما تدرك العقول السليمة صفة الحكمة عندما ترى أثر الإحكام في المخلوقات، وصفة الخبرة عندما ترى الإلتقان، وصفه الرزق عندما ترى عمليات تدبير الأرزاق، وصفة الرحمة عندما ترى آثار رحمة الله في مخلوقاته، وصفة الوحدانية عندما ترى التكامل في بناء الكون والثبات الذي لا يهدده الفساد، فتكون المخلوقات التي تملأ الأرض والسموات

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي ص ٢٩.

يؤثر فيها، بفضل التفكير فيما تحويه آيات الكون والوحي في طياتها، ترشد الضال إلى الإيمان بالله، وتزيد من قوة هذا الإيمان في القلب، فكما نعلم أن الإيمان أسس وأركان، دعامة الدليل والبرهان، فتفكر المؤمن في آلاء الله يوثق رابطته بالله تعالى، ويزيد من عزيمته وهيمته لنشر هذا النور والطمأنينة وتعميمه على كل البشر.

وأثناء هذه العملية يدرك المؤمن وظيفته الدنيوية في إقامة شرع الله على هذه الأرض، عن طريق التفاعل الإيجابي مع مخلوقات الله، فيعمد إلى استغلالها، واستخراج منافعها، ومعرفة الحكمة منها ومن خلقها، ودلالاتها على صانعها وخالقها، ومدى تحقق صفات الجمال فيها مما يعكس حكمة التقدير ودقة الإبداع، ويبرز كمال الصفات الإلهية، فالتفكر في خلق الله «هو العمود الفقري للإيمان الذي ينبثق عنه كل عمل خير»^(٣).

وتتجلى لنا الصياغة القرآنية للروح الإنسانية عبر مداخل التفكير في تكوين الصفات والأخلاق والرفاق التي تحيا بها الأرواح، واستثارها إذا أسدل عليها غطاء الغفلة، فالإحساس الذي يشعر به المتفكر وهو يجول في ملكوت الله سبحانه وتعالى،

(٣) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدرى ص ٣١.

نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته؛ ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكن نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته^(١).

كما يقول (لورد كيافي) وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم هذه العبارة القيمة: «إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله»^(٢).

بهذا يتبين أنه لا يوجد طريق يسير وآمن ومقنع مثل التفكير، للاهتمام إلى خالق الكون، والإيمان بوجدانيته، والعمل بمقتضى أوامره.

ثانياً: تزكية النفس واستقامتها على هدى الوحي:

إن من أهداف التفكير السامية بعد وجوب الإيمان بالله خالقاً ورباً لهذا الكون هو ضرورة تعزيز القوة الإيمانية في القلب، وتحسينها من كل ما يمكن أن

(١) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعات الأرض، حرره: جون كلوفر مونسيما، ترجمة: عبد المجيد سرحان الدمرداش ص ٢١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

كما أن من الصفات التي تنتج عن التفكير الخشية والخوف من الله تعالى، فإدراك الإنسان لعظمة الملك، ويديع الصنع وجلال القدرة تجعل القلب يهتز خوفاً وخشية لله تعالى، فهي ثمرة الإيمان وعلامة على لين القلب ونقاء السريرة، وغالبًا ما تكون هذه المعرفة متعلقة بجلال الله تعالى.

لهذا يقول تعالى في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاؤًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ لَهُمْ لَهَا سَعِيدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وفي هذه الآيات يربط الله تعالى بين الخشية وبين الإيمان بالآيات سواء الكونية أو القرآنية التي تجعل المؤمنين موحدين، يبيعون الدنيا في مقابل الآخرة والفوز في يوم المعاد، فتقلب حياتهم سباقًا في ميدان الأعمال الصالحة، وهي الهبة التي منحها الله لقارئ القرآن وسامعه.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

يقول الألوسي: «وفي هذا تمثيل وتخيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه

مستحضراً المعية الربانية، والتسييح الكوني لمخلوقات الله، يجعله يعيش حالة من الصفاء الذهني والإشراق القلبي، تفيض عليه من المعارف والمواهب الربانية ما كتبه الله له، وتكون محصلة هذه الرحلة اكتساباً لمفاهيم جديدة، ومعارف غير مسبوقة، تهيمن على روحه، وتصبغها بصبغة الإيمان، وتثمر أعمالاً صالحة، تملأ الأرض عدلاً وصلاحاً.

وأول ما يناله المؤمن من التفكير هو ذلك الجلال الذي يملك على القلب ويهيمن على الروح، فيلهج اللسان بالشكر والذكر لما يشاهده ويحسه من آثار قدرة الله في الكون وفي حياته؛ ليمتلئ القلب حياةً من الله سبحانه وتعالى.

فكلما تمعن المتفكر في نعم الله عليه وأحس بفضل الله عليه، وتقصيره بجانب ما منحه الله، وتعاضمت ذنوبه أمامه، أحس بمدى غفلته، هو إحساس يعرفه الجنيد رحمه الله بقوله: «الحياة رؤية الآلاء، ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياة»^(١).

ويقول السعدي رحمه الله: «ويقاس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة لا محالة»^(٢).

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم ٥/٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٣.

لذا قال بشر الحافي: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه»^(٣).

هذا التغيير السلوكي والأخلاقي للنفس البشرية بتأثير التفكير يؤكد علماء النفس في العصر الحديث، فالتفكير التأملي لدى الأفراد «يساهم في تنمية الإحساس بالمسؤولية، العقل المتفتح، والإخلاص، والفرد المتأمل أكثر قدرة على توجيه حياته، وأقل انسياقاً للآخرين، واستخدام التفكير التأملي لا يعني أن يكون لدينا فكر واضح، ولكن أيضاً امتلاك السلوك الذكي»^(٤).

وهذا ما جعل الدكتور البدري يعتبر التفكير «العمود الفقري لتصور المسلم عن نفسه، واستعداده بعد ذلك لتغيير سلوكه وعاداته، فبدون التغيير لا يمكن تعديل السلوك والعادات»^(٥).

وهذا يؤكد أن هناك رابطاً عجبياً بين أفكار الإنسان وأخلاقه، وهو ما سبقه إليه الإمام ابن القيم حين بين أثر التفكير؛ «فالتفكير يوقع

١٤٣٠هـ.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٥.

(٤) فعالية استخدام بعض استراتيجيات ما وراء المعرفة في تحصيل الفيزياء وتنمية التفكير التأملي والاتجاه نحو استخدامها لدى طلاب الصف الثاني الثانوي الأزهرى، فاطمة عبدالوهاب، مجلة التربية العلمية القاهرة مصر ديسمبر ٢٠٠٥م، المجلد الثامن، عدد ٤، ص ١٧٧.

(٥) التفكير من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص ٣١.

من المواعظ والزواجر، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر ما فيه من القوارع، وهو الذي لو أنزل على جبل وقد ركب فيه العقل لخشع وتصدع»^(١).

والخشية لا تنبع إلا إذا أدرك الإنسان مكانة هذا القرآن وعظمة الخالق، حينها يمتلئ القلب بالقوى، فتراه يحرص على العمل بطاعة الله، ما يجعله مستقيم الفكر، حسن السلوك.

وكل هذا يشع في النفس يقيناً بالله، واطمئناناً بسلامة الطريق، وإحساساً عالياً بالمعية الإلهية، ما يبعث في المؤمن زهداً لملذات الدنيا، ويستتبت في قلبه بذور الذل والتواضع والرحمة والانكسار بين يدي مولاه، ويحس حقارة نفسه بجانب خضوع مخلوقات الله له، فيعظم حب الله تعالى في القلب، وينطلق اللسان بالشكر والثناء، فتكثر الطاعات؛ تقريباً إليه، حتى لا يكون شيء أحب إليه في الوجود منه تعالى.

«فالأثر النوراني لهذا التفكير يعرقل عمل الشهوات في القلب، ويدفع أهواءها على حسب قوة الوارد من أنوار التفكير؛ فتسلب الشهوة من عاجل لذتها، فما يتبقى منها سوء عاقبتها»^(٢).

(١) روح المعاني، الألويسي ٦٨/٢٨.

(٢) التفكير عبادة ربانية وضرورة دعوية، محمد عادل، مقال من مجلة البيان على الانترنت،

فلا معنى للإنسان يقضي ساعات يومه ينظر في ملكوت السموات والأرض، ويقلب بصره بين عوالم الخلق، دون أن يجعله هذا الأمر يشمر على ساعد الجد والاجتهاد للتقرب إلى الله بالطاعات، وبالإقامة بمسئوليته تجاه هذا الكون قيادة وتسييراً على منهج الرسل الكرام بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة.

فالتفكير عموماً فيه تهذيب للأخلاق، وتلين لقسوة القلب، وترويح عن النفس، وزاد للعقل، وحفظ للجوارح عن الحرام، وفي الخلوة يستشعر الإنسان مراقبة الله، ويتذكر ذنوبه فيها، فتحلو المناجاة، وتعظم محاسبة النفس ومعاتبتها، فتنفلت من ربة الحياة الدنيا، وبهذا يتمكن المتفكر من تقوية إيمانه، وتحصين نفسه، وسمو أخلاقه، فتشرق أنوار المعرفة الإلهية في قلبه ويسير في مدارج السالكين إلى الله تعالى، ويصبح قادرًا على الانسجام في تولى التسبيح الكونية التي تتجلى في أسمى معانيها في اليقين القلبي برسالته، وإمامه بزمام العلم والمعرفة، وحسن تسخيرها وتسييره لهذا الكون.

صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكير يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضلها من فاضلها...، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فكره لذته، وفرح النفس به إلى سوء عاقبته، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة، ومن فكر في ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه»^(١).

ويزيدنا بيانًا الإمام الغزالي حين يوضح لنا بالمثال كيفية تغير أحوال القلوب والنفوس بمفاهيم الفكر: «فإن الفكر يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينًا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وهذا ما عيناه بالحال؛ إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة، وقلة الرغبة فيها»^(٢).

هذه الصفات النبيلة وغيرها تثمر في القلب حكمة تزين المتفكر، فلا تجده ذو فكر سقيم، أو رأي عديم، بل له من نفاذة البصر، وسداد الرأي ما يوجه به حياته إلى بر الأمان، كونه يتعمق في أسرار الأمور، ويدرك بدايتها وغايتها، ويميز بين النافع والضار، كما أن التفكير يعتبر سبيلًا للعمل،

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٠.

(٢) التفكير في خلق الله، أبو حامد الغزالي ص ٤٢.

الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾
[فصلت: ٥٣].

ومعرفة هذه السنن يجعل الإنسان يفهم سر هذه الحياة، ويمسك بزمام الأمور فيها، ويفقه قوانينها، ويساعده على فهم ظواهرها، وتسخيرها لتلبية حاجاته، وتيسير حياته، كما يعرفه على نتائج أعماله إن خالف هذه السنن، وعمل على الاستبداد والظلم وإثارة الفساد، فستسري عليه سنة الله بالهلاك والعقاب في الدنيا والآخرة، وإن أحسن وعمل على الإصلاح والتعمير، كانت سنة النصر والتوفيق للتقدم مصيره، وكتب له النجاح في امتحاني الدنيا والآخرة.

وقد بين الله سبيل التعرف على هذه السنن بالاعتماد على التفكير العميق في عواقب الأمور، والتدبر في الآثار وما بقي من دلائل وآثار الأقوام السابقة، وهذا لا يتأتى إلا بالسير المعتمد على النظر العقلي. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والاستقراء العلمي والتاريخي لأسبابها وحقائقها، وربطها بالعقيدة؛ لتقريبه من خالقه، وبيان أهميتها في دنياه وأخراه؛ لأن النظر في الكون دليل لمعرفة سنن الله في الكون، والتي هي في حد ذاتها دليل على

ثالثاً: التعرف على سنن الله في الآفاق والأنفس:

من الأهداف الأساسية التي وضعها القرآن الكريم لموضوع التفكير هو معرفة السنن الإلهية الكونية والإنسانية التي تقوم عليها المنظومة الكونية بشقيها الخاص بمجال الآفاق، أو ما يخص النفس البشرية «ذلك أن حوادث الكون خاضعة لسنن وقوانين سنها الله تعالى وفق أقدار قدرها...؛ لبحث الإنسان عن سنن الله في الأمم السابقة، مما يجعل تفكيره سليماً مبنياً على قانون ثابت»^(١).

وقد جاء في القرآن آيات كثيرة تبحث في السنن، وتدعو الإنسان للوقوف عندها، والتأمل فيها ودراستها لاستيانتها أكثر، وهي دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الحياة وروابطها على مدار الزمان، ووحدها من حيث المنشأ والمصير، واكتشاف العلائق الحاكمة لها منذ خلق البشرية؛ «كي لا ينزل جيل من الناس بنفسه وحياته، وقيمه وتصورات، ويغفل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعاً، وعن وحدة السنة التي تحكم هذه الأجيال جميعاً، ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعاً»^(٢).

قال تعالى: ﴿سَرِّبْنَاهُمْ سَبِيلَهُمْ وَإِنبَأْنَا فِي

(١) التربية بالآيات، النحلوي ص ٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٧٦٠.

في حياته، وفي سورة الرعد ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل إنعامه على الإنسان فقد خلق له الأرض ممدودة مبسطة؛ ليسهل عليه السير فيها والزراعة فيها، فالمد والبسط سنة الله في الأرض، وإن كان هذا لا ينفي كرويتها في الشكل العام، هذه الكروية في حد ذاتها هي سبب في دورانها حول نفسها ما يحدث تعاقب الليل والنهار، وسبب في دورانها حول الشمس ما يحدث اختلاف الفصول، وفي كل هذا منافع للناس، ثم ثبتها بالجبال الرواسي، وجعلها كالأوتاد لها، وشق خلالها الأنهار، ومن الأرض والأنهار يكون النبات والثمار.

وهي سنة جارية في الكون ذكرت وتكررت في القرآن كثيراً؛ للتنبية عليها، ومعرفة التعامل معها والاستفادة منها في طلب الرزق، وجعل سبحانه وتعالى النباتات ثابتة في الأرض؛ لأن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عنها فهي غذاء أساسي، ولو جعلها متحركة كالحيوان لشق عليه الحصول إليها، لكن جعل غذاءه جزءاً من متحرك يتمثل في الحيوان، وسخر له الوسائل المساعدة للتمكن منه.

وفي آية النحل بين الله هدايته لعالم الحيوان وستته فيه، وكيف تسعى هذه الحشرات الصغيرة في الأرض بهداية الله

معرفة الله الواحد، وفي هذا إقرار بوجود مثل هذه السنن، وحث على معرفتها والاعتبار بها وتوظيفها في البناء الحضاري. والمؤمن مطالب بالتفتيش عن هذه السنن واكتشافها؛ ليتبين له النظام الدقيق الذي يحكم هذا الكون، ويستخلص الحكم والعبر من الوقائع والأحداث؛ لأن سنن الله مترابطة ومتناسكة برباط محكم تبرز فيه الحكمة والإبداع، كما أنها تتميز بالنظام والثبات، فهي المقوم لانحراف الإنسان في سيره إلى الدار الآخرة، وسنن الله في خلقه كثيرة، ربط الله منها عدة سنن بموضوع التفكير، وجعله أساساً للوصول إلى معرفتها، وبيان حقيقتها، من هذه السنن ما يأتي:

١. السنن الطبيعية في الكون.

يعرض الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة من القرآن الظواهر الكونية، وكيفية عملها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَلَمَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهِيَ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ففي هذه الآية يشبه الله الحياة الدنيا بالنبات؛ وذلك في دورة حياته وسنة الله

والعلم الحديث اكتشف أن النباتات هي أيضًا تتزاوج، ففي كل نبتة أوجد الله سبحانه وتعالى أعضاء التكاثر الذكرية والأنثوية، وبفعل قوة الريح أو انتقال الحشرات على النبتة أو على النباتات التي تحمل بذور الطلع يحدث هذا التزاوج.

وفي عالم الحيوان يقول تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويختار ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ [الرعد: ٣].

يتوقف فيها عند الثمرات، وتستأنف معنى آخر يشير إلى سنة الزوجية في الحيوان حيث يقول: «والظاهر أن جملة ﴿جَعَلَ فِيهَا رِيسًا﴾ مستأنفة؛ للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات، وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكراً وأنثى أحدهما زوج مع الآخر»^(٢). وهو معلوم وظاهر في حياة هذه الكائنات.

وفي عالم البشر يجعلها الله سبحانه وتعالى من أعظم الآيات، بحيث ربطها بآية الخلق والوجود.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ

وتحصل على رزقها فتستفيد وتفيد معها البشر، وهي سنة الله في الأرض فكل مخلوق مقدر له في هذه الأرض أن يأخذ منها ويعيد لها، في دورة لحياة الكائنات سنها الله تعالى، وهي قوانين دقيقة تحكم النظام الكوني لا يمكن أن تنفصم أو أن تختلف حتى لو مرت عليها ملايين السنين.

٢. سنة الزوجية.

يبين الله سبحانه وتعالى هذه السنة في كثير من الآيات.

يقول جل جلاله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فالتناسل والتوالد والنمو بين الكائنات لا يكون إلا بزوجين متكاملين، وعادة ما يكونان من نفس الجنس؛ ليحدث التآلف والانسجام بينهما، وتستقر الحياة، وهي سنة تحكم الكون بكل ما فيه من جمادات وكائنات.

ففي عالم النبات يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْآيِلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

يقول الرازي: «المراد بزوجين اثنين: صنفين اثنين، والاختلاف إما من حيث الطعم كالحلو والحامض، أو الطبيعة كالحر والبارد، أو اللون كالأبيض والأسود»^(١).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/٨٣.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/٥.

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿[الروم: ٢٠] -

وفي هذا امتنان من الله على الإنسان بهذه
النعمة، فهذه الزوجية تمنح الإنسان سواء
الذكر أو الأنثى السكن والمودة والرحمة،
وهي عناصر الاستقرار والاستمرار على
الأرض.

كما أن هذه السنة هي أساس عالم
الجماد، فالذرة أصغر ما في هذا الكون،
وتتكون من زوجين بروتون ونيوترون، حتى
الكهرباء الغير مرئية تتكون من شحنتين
موجبة وأخرى سالبة، ومن بديع حكمة
المولى أنه جعل أزواج الأشياء من نفس
جنسها، ومقاربة الخصائص، وركب ذلك
في المخلوقات، فترى كل نوع يميل ويسكن
إلى بني جنسه ومثيله.

٣. سنة الحياة والموت.

وهي سنة تأسر النفس البشرية، وتجعلها
تحاط بإطار زمني مغلق، يبدأ في لحظة
معينة، وينتهي إلى أجل مسمى، تنحصر فيه
أعمال الإنسان وأقواله وتصرفاته، وهي دليل
على حكمة التدبير، وحسن التنظيم والقدرة
العظيمة لخالقه، لا ترتبط بالحياة البشرية،
فقط بل يخضع لها الكون بأسره بكل ما فيه،

فكل يسير إلى أجله المقدر له، وارتبط التفكير
بهذه السنة في آية يونس (٢٤) ليعبر عن
حقيقة الوجود الإنساني على هذه الأرض
بأبلغ تشبيه، وأوجز عبارة، فمدة الحياة على
هذه الأرض مذ بدء الخليقة لا تتجاوز في
حقيقتها مدة نمو النبات وحصاده، فما بالك
بحياة الفرد الواحد عليها، وهو مثل يحفل
بالتوجيه والتنبيه؛ لعدم الركون إلى هذه
الدنيا، ويحذر من الانحدار إلى شهواتها
حتى تأتي لحظة النهاية ولا ينفع حينها الندم.
فالتفكير في هذه المثل يقودنا إلى الإيمان
بحقيقة فناء الكون، من خلال تحقق سنة
الحياة والموت في مستويين يقودان إلى
مستوى ثالث «فالمستوى الأول يتمثل
في إحياء الأرض بعد موتها، أو موتها بعد
حياتها، فتكون الأرض مخضرة في الربيع،
ثم يأتي الخريف فتكون حصيداً، والمستوى
الثاني تحقق في أهل القرى، فكم من قرية
كانت عامرة بأهلها، تزدهر فيها الحياة بكل
مظاهر الزينة من أنهار وزروع وثمار...

ثم أصبحت بعد ذلك خراباً بما كسبت
أيديهم...

فالمستوى الأول يشير إلى نهاية الحياة
الدنيا، والمستوى الثاني يشير إلى نهاية
الأمم والمجتمعات، ويكون المستوى
الثالث هلاك كل شيء، فعلم أن لا خلود في
هذه الحياة، وهذا مدعاة إلى التفكير الجدي

مذلة لهذا المخلوق الضعيف، قصد تسهيل خلافته على الأرض، رحمة وفضلاً من عند الخالق.

وهذه السنة تحكم النظام الكوني بطريقة منظمة وثابتة لا انفلات فيها، ما يسمح بالتفاعل الإيجابي للإنسان مع الكون، وهذا التسخير لا يكون إلا بالتعرف على خواص الأشياء وحقائقها باستعمال وسائل الإدراك والحس، والاستعانة بهدي القرآن الذي «يضبط صيغ التعامل بين الطرفين بقيم ومبادئ وأعراف، تحقق أقصى درجات التكشف والإبداع...، وتنشئ أكثر الصيغ الحضارية ملائمة لطموح الإنسان وأخلاقه ومكانته في الكون»^(٢)؛ لأن التسخير هو قهر للمخلوقات وإرغامها على القوانين الكونية التي ركبها فيها الله؛ لذا حث القرآن على البحث في دقائق المخلوقات وخصائصها، واستكشاف مكامن الخير والنفع فيها؛ وذلك بالتعمق الدقيق في تفاصيلها وحقائقها التي لا تتبدى إلا بعد التفكر فيها.

كما حاول القرآن أن يضع الإنسان على هذه الطريق من خلال فتح بصره على بعض طرق الانتفاع بهذه الكائنات، فهو يضرب لنا مثلاً للتفكر في كائن صغير لا يكاد الإنسان يولي له شأنًا، لكن فائدته كبيرة بالنسبة له،

بمصير الإنسان، ومصير الحياة»^(١).

كما جاء الحث على التفكر في سنة الموت في سورة الزمر، حين ربطت بالموازاة مع ظاهرة النوم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:

٤٢]؛ ليتمكن المتفكر أن يوازن بين هاتين الظاهرتين من حيث كونهما دليلًا على توقف الحياة والانتقال إلى عالم آخر غير هذه الحياة، فالنوم يشبه الموت في انقطاع الإدراك والإحساس والتصرف، وإن كان حالة مؤقتة، لكنها تنبئ عن حالة النوم الأبدي هي الموت.

إذن سنة الحياة والموت هي سنة كتبت على كل من في الأرض فما من شيء حي إلا وله نهاية.

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَاوَنٌ ﴿٣٦﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِ رَيْبَكَ ذُو الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

٤. سنة التسخير.

وهي من السنن التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، يعلم بها البشر طرق التعامل مع الكون والاستفادة منه، فكل هذه العوالم التي هي أكبر من الإنسان حجمًا هي

(٢) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أبو سليمان ص ٢١.

(١) منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، زياد الدغامين ص ٢٠٦.

٦. سنة الابتلاء.

ومن سنن الله على البشر سنة الابتلاء، وهي سنة كتبها الله؛ ليميز بها الصالح عن الطالح، ويتباين منهج الحق عن مناهج الباطل، فتكون الدنيا هي دار الابتلاء، بما تحمله من مغريات وشهوات وملذات تغري بها الطامعين؛ لتكون حجة لمن انحط وغفل عن الغاية الكبرى وتقوم الحجة على من اتبع النهج السوي، وأمسك نفسه عن الهوى.

والتفكر في سنة الابتلاء وارد في قصة المثل الذي ضربه الله تعالى للمنفق المراثي الذي ابتلاه الله في جنته التي كانت عامرة وذات زينة وبهجة، وله ذرية ضعيفة يعولها، لكنه اغتر واستكبر، ونسي حق الله، فما كان إلا أن جرت عليه سنة الله بالابتلاء؛ ليتبته من نوم الغفلة، ويعود إلى الصراط المستقيم. كما أنه سنة الله على رسله عند تبليغ دعوتهم، فمن ابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم وصمه بالجنون والكذب.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنْفَكِرُونَ مَا بُعِثُوا بِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لِّمَن يَخَافُ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وفي هذا تسلية للدعاة على طريق دعوتهم وحث لهم على الصبر والاحتساب، فالابتلاء في الدنيا هو محبة من الله لعباده قصد تنبيههم إلى غفلتهم وتقصيرهم، وكثرة أخطائهم، وزيادة في حسناتهم، ورفعاً

لدرجاتهم في الجنة.

وهذه بعض من السنن التي تحكم الحياة والكون، وهناك نواميس أخرى، حري بالعقل أن يبحث عنها ويفهمها ويوظفها؛ لتسهيل الحياة وخدمة الرسالة الربانية، وأن يتفكر فيها وفي معانيها قصد إدراك حقيقة وجوده على الأرض.

٧. سنة الله في الظالمين.

ويكون معنى ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أنهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم، أي: ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبي صلى الله عليه وسلم، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿فَارْتَبَّ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر وقد توعدهم به القرآن بقوله: ﴿يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

وأية عبرة أعظم من مقتل أبي جهل يوم بدر، رماه غلامان من الأنصار وتولى عبد الله بن مسعود ذبحه وثلاثتهم من ضعفاء المسلمين وهو ذلك الجبار العنيد. وقد قال عند موته: لو غير أكار قتلني، ومن مقتل أبي بن خلف يومئذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان قال له بمكة: (أنا أقتلك) وقد أيقن بذلك فقال لزوجته ليلة خروجه إلى بدر: والله لو بصبقت علي لقتلني.

رابعاً: إدراك مقاصد الحياة والوحي:

إن من أهداف التفكير العامة والتي جاءت في رحاب آياته بيان مقاصد الحياة لكثير من الناس الذين يجهلونها؛ وذلك عن طريق إنزال الوحي وهداية البشر، ودعوة القرآن لاستكشاف هذه المقاصد بغرض تسهيل فهم الحياة لهم وإدراك سر خلقهم ووجودهم، وبيان مهمتهم والطريق المستقيم الذي يجب أن يسيروا عليه.

وبما أن التفكير من العمليات الراقية في العقل البشري، كان لابد أن تتصل مواضعه بإدراك حكمة الحياة، وكشف مقاصد الشرع؛ لذا جاءت آياته واضحة في هذا المعنى مؤيدة له، عن طريق عرض مشاهد الكون والاستدلال بها عن عدم عبثية الخلق، ومن ثم هي تنبيه للإنسان إلى أنه الراعي المستخلف لشئون الكون بهدف القيام بأمور الرسالة الموكلة إليه.

فبعد تحقق الأهداف السابقة لموضوع التفكير من معرفة الإنسان لخالق الكون والإيمان به، ثم طاعة أوامره واجتناب نواهيه، مروراً بتزكية نفسه وتهذيبها، ثم إحاطته بالسنن والنواميس الكونية، يبدأ عمله على هذه الأرض من خلال القيام بالمهمة التي من أجلها أرسل إلى الأرض، وهي تحقيق العبودية لله تعالى عن طريق حسن الاستخلاف في الأرض، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

هذه الأمانة الاستخلافية التي قبلها الإنسان بالرغم من الضعف الكائن فيه، بعد إباء من هو أعظم منه في ميزان الوجود من سموات وأرض وجبال على حملها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وللقيام بأعباء هذه الأمانة كرمه الله تعالى بأن جعل حواسه المختلفة نوافذه على عالمه الخارجي، وميزه بالعقل عن سائر المخلوقات، وجعل لعقله سلطاناً على قوى نفسه، وركب فيه المشاعر؛ ليطل بها على نفسه الداخلية، وهداه بنور الوحي الرباني، وبعث إليه الرسل، كل هذه الوسائل؛ لينهض بهذه المسئولية الثقيلة، ويقوم بها على أكمل وجه، فيتحقق معنى العبودية التامة لله تعالى، وإن كان جل وعلا غنياً عن هذه العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

التفاعل الإيجابي معه، هذه المكانة ناتجة عن امتلاكه مفاتيح معرفة الكون، والوسائل والأدوات التي تجعله يحسن التحكم به.

هذه النظرة للكون والحياة هي جوهر التصور الإسلامي المخالف للنظريات الغربية التي تدفع بالإنسان للدخول في صراع مع الطبيعة للسيطرة على قواها، ومن ثم تسخيرها لخدمة أهدافه وتحقيق مصالحه، أما قمة العلاقة في الإسلام فتنشأ عن طريق الرحمة بالمخلوقات، والإحساس بدورها ومكانتها في المنظومة الكونية، والاستثمار الإيجابي لها، ما يكسب الإنسان فيها وحدة مع هذا الوجود وتناغما مع تسييحاته؛ لأنهما خلقا من أجل هدف واحد هو تحقيق العبودية الكاملة للخالق الواحد.

ومن فهم هذه الرسالة استطاع أن يجمع بين مرتكزات الحضارة الإنسانية التي تقوم على الإيمان بالله، والعلم النافع، والعمل الصالح، وهي منظومة لا يمكن الفصل بين ركائزها وإلا حدث اختلال في التوازن الحضاري، وانتشر الضلال والفساد وكثر الشر، حينها لا بد أن يحدث الركود الحضاري، وتتوقف عجلة الرقي والتطور، ما ينبع عن سقوط الحضارة، ولنا في حضارات الأمم السابقة عبرة، أين تزعزعت ركيزة الإيمان بالله، ما عجل بسقوط أمم كانت قد عمرت الأرض وآثارها شاهدة

هي رسالة ألم بها أرباب العقول ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَوْلًا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فسمت أرواحهم بعبير الذكر، وتغذت عقولهم برحيق الفكر، فأدركوا حكمة الخلق ورسالة الوجود، واعترفوا بالحق، وفهموا أن هذه الحياة ما هي إلا دار اختبار لطاقة الإنسان على حمل الأمانة والقيام بتبعاتها، وأن كل ما في الكون شاهد على هذه الحقيقة، ثم يكون اللقاء يوم القيامة؛ ليحاسبوا على أداء الرسالة، ويجازوا إما إلى الجنة أو إلى النار.

ومن إدراك هذه الحقيقة ينطلق المسلم بهذه المعرفة اليقينية، ويقابل عوالم الكون ويتعامل معها مراعيًا مبادئ وسنن النظام الكوني؛ لتحقيق مصالحه العليا على الصعيد الإنساني والحضاري وفق سياسة التوافق والانسجام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهي علاقة تكريم تتجسد فيها سيادة الإنسان ومحوريته، وتظهر مسؤوليته الواعية تجاه نفسه وتجاه ما يحيط به عن طريق

الإنسان في هذه الحياة، كل هذا ناتج عن عدم فقه التكامل الوحيي الفكري لرسالة الإسلام، ما أدى إلى اختلال الموازنة بين جانب الروح وجانب الفكر؛ لذا تبدو حاجة الإنسان الملحة إلى توفر تربية شمولية منظومية «تربط بين الإيمان والأخلاق الفاضلة، والعلم الصحيح والعمل الصالح وإن هذه العناصر الأربعة للتربية ينبغي أن تصبح متلازمة متماسكة إذا شئنا سعادة البشر أفرادًا وجماعات، ونجاة الإنسانية مما يحيط بها من شرور وأخطار»^(١).

وهي التربية التي غرسها القرآن في نفوس الجيل الأول فأثمرت.

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ۝٢﴾ [العصر: ١-٣].

وستثمر في أي وقت متى وجدت تربة النفوس مهيأة؛ لتنهل من معينه.

وركز القرآن على الارتباط الوثيق بين العقل والوحي وتكاملهما في البناء الحضاري، فأمر العقل بالبحث في أرجاء الكون مسترشداً بهدي الوحي، كاشفاً عن سر الخلق والخالق، فالوحي يتبدى في كتاب الله وسنة رسوله، وهما باب النجاة، ومفتاح هذا الباب نور الفكر الصحيح، هذه

(١) نحو تربية مؤمنة، محمد الحمالي ص ٥.

عليها إلى يومنا هذا، لكننا نجد في المقابل أن الحضارة الإسلامية لم تسقط ذلك السقوط المريع لباقى الحضارات، كونها ما تزال تحمل بذور قيامها في جنباتها، وإن فصلنا أكثر نجد أن القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية هي الإيمان بالله، وهي قاعدة ما زالت صلبة عند المسلمين إلى يومنا هذا، لكن تخاذلهم عن اكتساب العلم النافع، وتضييع أسباب العمل الصالح هو ما أدى إلى أفول نجمهم، وتأخر ركبهم. ولأن حل الأزمة وزمام الأمر في إيقاظ

العقل ودعوته للتفكير، لم يهمل القرآن دور الفكر في هذه التربية، فقد اعتنى بمواءمة فكر الإنسان مع دوره المنوط به، من خلال فتح باب التفكير والتأمل على الكون على مصرعيه، فكانت آياته دعوة لاستثمار طاقة العقل فيما يفيد بني البشر بضوابط محددة، تغاير في أهدافها ووسائلها السياحة العقلية التي يدعو إليها الفكر الغربي اليوم، أو ما يسمى التأمل الارتقائي الذي لا تتجاوز نتائجه حدود النفس البشرية - هذا إذا تحقق ذلك - دون أن ينعكس على الواقع والمجتمع.

وما الوضع المتردي الذي تمر بها الأمة الإسلامية في هذا العصر إلا وجه من وجوه التأزم الفكري وعدم وجود منهجية لتقويم مفاهيم الحضارة وتصحيح النظر إلى دور

أمين الوحي جبريل عليه السلام ﴿بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وليس لديه أي قدرة في تغيير شيء أو
آية إلا بإذن الله تعالى، كما أن مهمته إنذار
الكفار لما ينتظرهم من عقاب شديد نتيجة
عدم اتباعهم للحق، وعملهم به، وارتباط
الإنذار بآيات التفكر؛ ليثير في القلب
الخوف والرهبة ومحاسبة النفس على
أعمالها والاستعداد ليوم الجزاء.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، التدبر، العبرة، العقل،
الغفلة، القرآن

الثنائية تجعل البناء الحضاري بناءً حصيناً
ومتيناً، وهذا التكامل هو الذي كان الدعامة
القوية لتحفيز المسلمين للبحث في أسرار
هذا النظام الكوني، وتفعيل هذا البحث في
إرساء سفينة الاستخلاف؛ لتبنى حضارة
استمرت عدة قرون.

لذا وجب على المتفكر وهو يجول في
رحاب الكون أن يستأنس بنور الوحي الذي
يمده بحقيقة الأشياء، ويكشف الغطاء عنها،
فيقوم عقله بسبر أغوارها والتأمل فيها، كما
أن الوحي يبصر العقل بأمور الغيب التي لا
طاقة له بها، وتوجيهه للسير في هذه الحياة
وتوضيح مهمته فيها، ومن ثم تزويده بطاقة
إيمانية ومعرفية يحتاجها في الطريق، فأيات
الله المنصوصة في الكتاب هي المدخل
الصحيح للعلم بطبيعة الكون وسنته ونظامه
الخاص، وبالتالي اكتناه أسرارهِ وخفائهِ،
فآيات الله في الكون وآياته في الكتاب
تبدوان في الوحي القرآني متساوقتان، بل
ومتناسبتان تمام التناسب^(١).

كما أن من مقاصد الوحي بيان وظيفة
الرسول صلى الله عليه وسلم فما هو إلا
تابع لما يوحي له، فبالتفكر الصادق يتبين
أن الرسول لا يملك صفات الإله، ولا
خصائص الملائكة، فهو بشر يتبع ما يأتيه به

(١) أصول المنهج العلمي في القرآن، محمد
مجذوب ص ١٣١.

